منير العكش

حق التضحية بالآخر

أميركا والإبادات الجماعيّة

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

منير العكش

حق التضحية بالآخر

أميركا والإبادات الجماعيّة



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

The Right to Sacrifice the Other
THE AMERICAN GENOCIDES
By Munir Akash

First Published in June 2002

BEIRUT, LEBANON
info@elrayyesbooks.com • www.elrayyesbooks.com

ISBN 97-89953-21090-2

الغلاف: تصميم محمد حمادة
الطبعة الأولى: حزيران/يونيو ٢٠٠٢

المحتويـــات

مقدمة

«تاريخنا مكتوب بالحبر الأبيض. إن أول ما يفعله المنتصر هو محو تاريخ المهزومين. ويا ألله ما أغزر دموعهم فوق دماء ضحاياهم، وما أسهل أن يسرقوا وجودهم من ضمير الأرض! هذه واحدة من الإبادات الكثيرة التي واجهناها وسيواجهها الفلسطينيون [...]. إن جلادنا المقدس واحد».

مايكل هولي إيغل (من نشطاء هنود شعب سو)، ١٩٩٦

لا يعرف أحد كيف اندسّ توماس مورتون Thomas Morton بين «الحجاج» الإنكليز الذين أسسوا مستعمرة «پليموث»، فقد كان بوهيمياً خليعاً لا يشاركهم أفكارهم أو أخلاقهم أو نظرتهم الاستعلائية إلى أهل البلاد «الهنود». ولولا كتابه اليتيم «كنعان الجديدة الإنكليزية *New English Canaan*» لدخل عالم النسيان ولما عرف العالم عنه شيئاً. فلطالما كاد له هؤلاء «الحجاج»

«القديسون»، كما يسميهم التاريخ الأميركي الرسمي، وحاولوا إخماد صوته وإطفاء ظاهرته، ومحو ذكره.

منذ وصوله إلى العالم الجديد في عام ١٦٢٥، ترك رفاقَه الحجّاج وشأنَهم ومضى ليعيش في «ماري ماونت» بين هنود «الپيكو» ويشتغل بالتجارة معهم ويبني ثروة هائلة من المال والحقائق والشهادات التي لم ترق قط للسلطات الاستعمارية. هكذا شكلوا فرقة عسكرية هاجمته واعتقلته ثم شحنته إلى إنكلترا لمحاكمته بتهمة «بيع الأسلحة» للهنود. ولم تمض سنة حتى عاد مورتون إلى «ماري ماونت» واستأنف حياته وتجارته مع الهنود برغم معارضة السلطات الاستعمارية وتهديداتها التي انتهت أيضاً باعتقاله وإعادته إلى بريطانيا وإحراق كل منطقة «ماري ماونت»، وذلك «لقطع دابر العادات الشريرة في أرض إسرائيل»، كما قال حاكم المستعمرة جون ونثروپ. وللمرة الثالثة يعود مورتون إلى أصدقائه الهنود ليكتب هذه المرة شهادته التاريخية «كنعان الجديدة الإنكليزية» ولينهي حياته في سجن المستعمرة محطماً سيّىء السمعة.

كانت جريمة مورتون الأساسية هي «ممارسة العادات الشريرة في إسرائيل»، وإسرائيل هو الاسم الذي أطلقه الحجاج الإنكليز على مستعمراتهم الأميركية. أما عملياً فهي بيع السلاح للهنود، وتفضيله العيش بينهم، وهو ما يفنّد كل افتراءات المستعمرين على ثقافة هذه الشعوب الهندية المسالمة وأخلاقها. كان مورتون يقايض السلاح بالفراء، وهذا يعني بتعبير الحاكم وليم برادفورد «أنه علمهم استعمال السلاح». «ولكن، لم لا؟ [يجيب مورتون] لماذا يُحرّم على جنس من البشر ما يحل لجنس آخر»؟ لقد أعلن الحجاج أنهم جاءوا ليعيشوا مع الهنود بسلام، ولهذا فقد أعطاهم الهنود كل ما

يحتاجون له وشاركوهم في كل ما عندهم فلماذا لا يكون عند الهنود المسالمين بعض السلاح الذي عند الحجاج المسالمين؟

صحيح أن عنوان كتاب مورتون «كنعان الجديدة الإنكليزية» يعبر عن روح «فكرة أميركا» التي هي الفهم الإنكليزي التطبيقي لفكرة إسرائيل التاريخية، وصحيح أنه يعيب على الهنود وثنيتهم، ويعتقد أن قدرتهم على معالجة بعض الأمراض المستعصية بالأعشاب الطبيعية مستمدة من الشيطان، إلا أن في الكتاب شيئاً من الإنصاف لأخلاقهم وثقافاتهم وبراعاتهم التقنية، وشيئاً من الاعتراف بإنسانيتهم وفضلهم وكرمهم الذي أنقذ المستعمرين من الفناء المحقق، كما أن فيه ثناء على أذواقهم وحساسيتهم الجمالية التي جعلت طبيعة بلادهم في عيني مورتون «أجمل من الحدائق العامة في إنكلترا».

الاعتراف بإنسانية الهنود وتزويدهم ببعض السلاح جريمة أقضّت مضاجع هؤلاء الحجاج الذين وضعوا حجر الأساس لفكرة أميركا؛ فكرة استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة. «ماذا لو استخدم الهنود هذا السلاح؟ [يتساءل الحاكم برادفورد] إن المستعمرة لا تحتمل هذا الجرح الذي أحدثه مورتون، إنه جرح قاتل». وهذا ما عبر عنه أيضا الرئيس جون آدامس حين قال بعد حوالى قرنين:

> «إن أغاني مورتون وعربدته وخلاعته وإباحيته أمر مشين، لا شك في ذلك. لكن تجارته مع الهنود بالسلاح والذخيرة، وتدريبه لهؤلاء المتوحشين على استخدام السلاح جريمة خطيرة قاتلة لربما أنها أودت بحياة المهاجرين، وهددت المستعمرات بالإبادة الكاملة، وجعلت أميركا التي نراها اليوم فكرة مستحيلة».

* * *

تعتبر قصة هؤلاء «الحجاج» الإنكليز، الذين أسسوا أول مستعمرة في ما صار يعرف اليوم في الولايات المتحدة بإنكلترا الجديدة، الأصل الأسطوري لكل التاريخ الأميركي ومركزيته الأنكلوسكسونية. وما يزال كل بيت أميركي يحتفل سنوياً في «عيد الشكر» بتلك النهاية السعيدة التي ختمت قصة نجاتهم من ظلم فرعون البريطاني و«خروجهم» من أرضه، و«تيههم» في البحر، و«عهدهم» الذي أبرموه على ظهر سفينتهم مع يهوه، ووصولهم في النهاية إلى «أرض كنعان». كل تصورات العبرانيين القدامى ومفاهيمهم عن السماء والأرض والحياة والتاريخ زرعها هؤلاء المستعمرون الإنكليز في أميركا التي أطلقوا عليها اسم «أرض الميعاد» و«صهيون» و«إسرائيل الله الجديدة» وغير ذلك من التسميات التي أطلقها العبرانيون القدامى على أرض فلسطين. وقد استمدوا كل أخلاق إبادة الهنود (وغير الهنود أيضاً) من هذا التقمص التاريخي لاجتياح العبرانيين أرض كنعان. كانوا يقتلون الهنود وهم على قناعة بأنهم عبرانيون فضلهم الله على العالمين وأعطاهم تفويضاً بقتل الكنعانيين، بل كانوا يسمون أنفسهم بالمستعبرين Hebriests. وكانت تلك الإبادةُ (الأكبر والأطول في التاريخ الإنساني) الخطوةَ الأولى على الطريق إلى هيروشيما وڤييتنام. إنهم كما يقول الحاخام المؤرخ «لي ليڤنغر» Lee Levinger «أكثر يهودية من اليهود» لأنهم يعتبرون أنفسهم «يهود الروح» الذين عهد الله إليهم ما عهد إلى «يهود اللحم والدم» قبل أن يفسدوا ويتخلوا عن أحلام مملكتهم الموعودة. وإن «يهودية» هؤلاء الحجاج هي التي أرست الثوابت الخمسة التي رافقت التاريخ الأميركي في كل محطاته من پليموث إلى جيكور:

المعنى الإسرائيلي لأميركا،

عقيدة الاختيار الإلهي والتفوق العرقي والثقافي،

الدور الخلاصي للعالم،
قدرية التوسع اللانهائي،
حق التضحية بالآخر.

وهي الثوابت التي سأحاول إضاءتها للقارئ في هذه الشهادة المتواضعة التي لا أعرف لماذا تردد «الحجاج» العرب بإدلائها وغفلوا عنها.

* * *

هذا العمل المتواضع ليس كتاباً. إنه شهادة جمعتُ تفاصيلها خلال فترة طويلة من الزمن. فمنذ وصولي إلى واشنطن كان لدي فضول لانهائي إلى معرفة ما جرى للشعوب الأميركية الأصلية، وكيف تمكن مستعمرو أميركا من إبادة سكان قارة كاملة (علمت لاحقاً أن عددهم يزيد على ١١٢ مليون إنسان لم يبق منهم في إحصاء أول القرن العشرين سوى ربع مليون). وبالطبع فقد واجهت سيلاً من الكتب والمعلومات التي أغرق بها التاريخ المنتصر القلوب والعقول وشاشات السينما والتلفزيون. وهي بمعظمها تؤكد على «فراغ الأرض» و«وحشية هذه الشراذم الهندية» ومسؤوليتها عما جرى لها.

ذات يوم، وفيما كنت أبحث عن مصادر لأسطورة «أنات» الكنعانية في مكتبة الكونغرس، عثرت بالمصادفة على كتاب توماس مورتون «كنعان الجديدة الإنكليزية». وقد شجعتني تجربة مورتون مع الهنود على أن أسلك طريقه في جمع الشهادات. وكاد فضولي أن يؤذيني وأن يسلمني إلى مصير مورتون، فكل الذين

طلبت العلم لديهم في البداية كانوا -كما علمت لاحقاً- من «مكتب الشؤون الهندية Bureau of Indian Affairs» الذي يزعم بأنه «يمثل أكثر القبائل المعترف بها رسمياً» ويشكل ما يشبه السلطة الوطنية الهندية. وكانت معظم المعلومات والمصادر التي زودني بها رفاق المكتب عن إبادة شعوب أميركا الأولى لا تختلف عن معلومات دليل الولايات المتحدة السياحي وأفلام الكاوبوي على الرغم من أنها متبّلة بعيار ثقيل من شعارات الصمود والغيرة المحترقة على ماضي «الهنود» ومستقبلهم. وكدت أصاب بالإحباط واليأس لولا أن تلمست طريقي بعد ذلك إلى بعض أصدقاء «الحركة الهندية American Indian Movement» فعرفت عندها أن الرفاق في «مكتب الشؤون الهندية» وسلطتهم فرع من وزارة الداخلية الأميركية، وأن للولايات المتحدة فضل اختراع ألطف نظام تطهير عرقي على وجه الأرض.

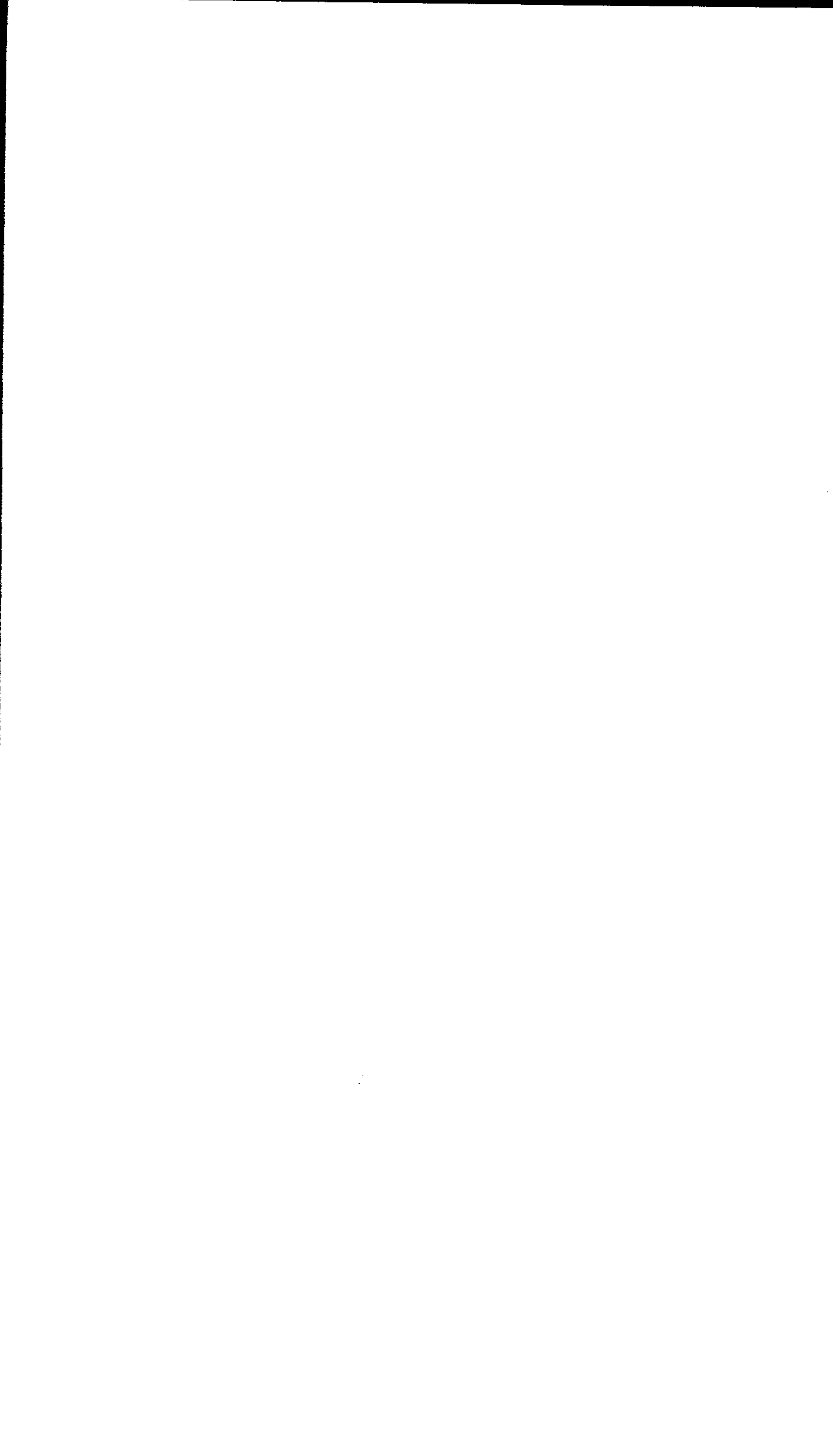
* * *

هذه الشهادة التي تحولت إلى كتاب بالمصادفة هي في الأصل فصل من عمل أوسع نشرت بعض فصوله في «الكرمل» وفي «جسور»، وما يزال هناك فصل أخير أرجو أن أنجزه في أقرب وقت، لكن أخي محمود درويش الذي عايش معي كثيراً من تفاصيل هذا العمل منذ بداياته يعتقد أن هذه الشهادة لا تحتمل التأجيل، وقد نصح لي بأن لا أنتظر غودو. فله بذلك الفضل الأول في إخراج هذا العمل إلى النور. وإنني إذ أشكره على ذلك لا يسعني إلا الاعتراف بفضل مفكري ونشطاء «الحركة الهندية»، وأخص منهم بالذكر «رسل مينز» و«ڤاين دولوريا جنيور» و«وورد تشرشل» و«لي ميللر» و«آنيت جيمس» و «مايكل هولي إيغل».

وأخيراً لا بد من شكر الصديق الشاعر الناشر رياض نجيب الريس فلولاه لم يخرج هذا الكتاب/ الشهادة بهذه الحلة البديعة.

منير العَكش

واشنطن، ١١ شباط/فبراير ٢٠٠٢



الفصل الأول

الوباء البديع

«إلسعوا أول من ترونه، واستمدوا حياتكم من موته».

أرسطوفان، «الزنابير»، ٤٢٢ ق.م

يجب أن تكون «زنبوراً» لتفهم هذا الهلع العصابي الذي أصاب أميركا مع ظهور حالات الجمرة الخبيثة، فالزنبور الأميركي WASP يختلف عن كل زنابير البراري في الشكل واللسع والتاريخ الطبيعي والعلاقة مع الجراثيم. إنه اصطلاح مؤلف من الحروف الأربعة الأولى لأربع خصال عرقية وأخلاقية استثنائية تميزت بها الذريّة الأرستقراطية «المختارة» التي أطلقت «فكرة أميركا» وصنعت تاريخها وأسست أساطيرها. في كل الطبقات الجيولوجية لذاكرة هؤلاء الزنابير (البيض، الأنكلو - سكسون، البروتستانت) مناجم غنية بمعادن موت استثنائي، بدونه لم تكن فكرة أميركا - فكرة استبدال شعب بشعب، وثقافة بثقافة - ممكنة.

هناك علاقة استثنائية بين هذا التاريخ الذي يرضع منذ أكثر من أربعة قرون من نسغ الموت وبين الهلع الهستيري الذي ملأ ليل الزنابير بكوابيس «الخطيئة الأصلية» لفكرة أميركا، واكتشف في كل ذرة من جيولوجيا الذاكرة جمرة خبيثة. ولربما كان هناك أيضاً ما يشبه الاستنساخ للعقلية القيامية التي عاشها أرسطوفان في أيام سقراط، وفنّدها في مسرحية «الزنابير» وفضح فيها على لسان بطله «كليون» جنون أثينا بالدينونة والمحاكمة والقتل بالسموم.

فجأة رأت ذاكرة الزنابير صورتها في المرآة: الإمبراطور عارياً تطارده أشباح ١١٢ مليون آدم وحواء ينتمون إلى أكثر من أربعمئة شعب كانوا يملأون «مجاهل» العالم الجديد بضحكة الحياة[١] (لم يبق منهم في إحصاء ١٩٠٠ سوى ربع مليون)، وتلوح لعينيه مشاهد ٩٣ حرباً جرثومية شاملة[٢] أتت على حياة الملايين من هذه الشعوب. هذه الإبادة الجماعية الأعظم والأطول في تاريخ الإنسانية، والتي حاول التاريخ المنتصر محو ذكراها من وجه الأرض، أيقظتها حالات «الجمرة الخبيثة» بكل أهوالها في مخيلة الزنابير التي بدأت ترى مستقبلها في صورة ضحاياها الذين أبيدوا بجراثيم الجدري في خليج مساشوستس، أو بمبيد الأعشاب البرتقالي وغاز الخردل واليورانيوم المستنفد في كوريا وڤييتنام وما بين الرصافة والجسر.

لم تعترف الولايات المتحدة قط بعدد الهنود الذين أبيدوا في الشمال الأميركي منذ بداية الغزو الأبيض الذي دشنه خوان پونس دوليون باكتشاف فلوريدا في فصح ١٥١٣ فيما كان يبحث عن «ماء الشباب» الأسطورية. إن كتبَها المدرسية لا تعترف بتاريخٍ لهذه «المجاهل» قبل كولومبس، فقد كانت شبه خاوية من البشر

تنتظر من الإله الذي خلع عليه أوليڤر كروموِيل الجنسيةَ الإنكليزية God is an Englishman أن يُهبِط فيها آدمَه ليؤنس وحشتَها ويعمرَها بالحياة. إن الفيلم «الوثائقي» الذي يُعرض للسياح في پليموث (أول مستعمرة في ما صار يعرف بنيو إنغلاند) والدليل السياحي في تمثال الحرية بنيويورك كليهما يؤكد لك أن تاريخ الإنسان في مجاهل الشمال الأميركي لم يبدأ إلا مع وصول الإنسان الأبيض في أواخر القرن السادس عشر. أما تلك القلة الضئيلة المشاغبة من الهنود الذين لم يتجاوز عددهم يومها المليون فقد حفروا قبورهم بأيديهم في حروب متكافئة شريفة شفافة كانوا هم مسؤولين عن إضرام نارها وحصد أضرارها، أو أنهم «ماتوا» قضاءً وقدراً بالأمراض التي حملها الأوروبيون معهم دون قصد.

وتمضي الكتب المدرسية فتصف هذا الموت القدري بأنه «مأساة مشؤومة يؤسف لها»، «غير مقصودة»، «لا متعمدة»، «لم يكن تجنبها ممكناً» و«أضرار هامشية تواكب انتشار الحضارة وطريقة حياتها»، وليس لك هنا بالتالي أن تلوم، إذا أردت أن تلوم، إلا القضاء والقدر. وبانتفاء النية والقصد والمسؤولية عن فناء هؤلاء «الأشقياء» يصبح الحديث عن الهولوكست الأميركي «متحاملاً»، «متهوراً»، «سلبياً»، «غير مسؤول»، و«ينبع من روح الكراهية» للحضارة و«طريقة حياتها». ألا ترى كيف أكرموا الهنود فرفعوا تمثال امرأة هندية فوق قبة الكاپتول، وجعلوه رمزاً للحرية؟

الأرقام الرسمية التي لا تعترف بوجود أكثر من مليون أو مليوني هندي عند وصول الإنسان الأبيض إلى العالم الجديد لا تختلف عن القول بأن عدد اليهود في أوروبا عند وصول النازيين إلى الحكم لم يكن يتجاوز مئة ألف أو مئتي ألف يهودي، ولربما أنه سيشجع على

القول مستقبلاً بأن فلسطين عند إعلان دولة إسرائيل لم يكن في مجاهلها أكثر من عشرة آلاف «متوحش». إننا لا نقف هنا أمام جهل بالحساب، أو غش في صفقة تجارية، بل أمام عدمٍ تتطاير أشلاء الذاكرة الإنسانية في هاويته ومعها تتطاير فرص الحياة لكثير ممن تلدهم أمهاتهم في «المجاهل». ولأنه ليس هناك من يعرف عمق هذه الهاوية فإن «المأساة المشؤومة» التي واكبت انتشار الحضارة في العالم الجديد تبقى مفتوحة على كل أنواع الثقافات والأعراق الإنسانية. هذا قدر أميركا Manifest Destiny ورسالتها الخالدة التي كتبت لها السماء أن ترافق أشعة الشمس حيث دارت الشمس.

لم تتقلص الأرقام الحقيقية بهذه الشراسة إلا لأن الكشف عنها يعري أسطورة «الأرض العذراء» التي افترعها الزنابير، أو «الأرض الفارغة» التي نُسجت من خيوطها كل أكاذيب التاريخ الأميركي ووضعت حياة إنسانيتنا باستمرار على شفا ذلك الثقب الأسود black hole. هذا الإصرار على أن عدد الهنود لم يتجاوز المليون أو المليونين عند وصول الأوروبيين، وأنه تقلص إلى ربع مليون في عام ١٩٠٠ يحيل كل قصة الإبادة إلى فيلم تسلية، ويقدم لبهلوانيي التاريخ المنتصر اللغة الأورولية المناسبة لنشاط وزارة الحب. إن بإمكانهم ابتلاع هذه الحسكة الطرية الصغيرة، ولكن كيف سيبتلعون عظام ١١٢ مليون إنسان؟

وليس «عامل الأمراض» بأقل لؤمًا. هناك مئات الكتب التي وضعها التاريخ المنتصر لما أسماه بعامل الأمراض disease factor، وهناك مئات الأبحاث والدراسات التي تسخر من فكرة إبادة سكان أميركا بالأسلحة الجرثومية. فالجدري والتيفوئيد والخنّاق

والحصبة وغيرها من أوبئة العالم القديم هي التي قفزت خفية إلى سفن المستوطنين، ووصلت سراً إلى شواطىء العالم الجديد، ثم تسللت إلى أرواح الهنود في قراهم ومدنهم قضاءً وقدراً. أما الهنود فلم يموتوا بسبب «احتكاكهم» بالأوروبيين أو لأن هذه الأمراض كانت سلاحاً من أسلحة الإبادة بل بسبب فقرهم للمناعة الكافية، خاصة وأن الإنكليز الأبرياء المسالمين في ذلك الزمان كانوا لا يعرفون شيئاً عن خطر هذه الأوبئة!

بهذا المنطق يؤكد التاريخ المنتصر أن حرب الإبادة الجماعية التي أفرغت العالم الجديد من سكانه وقضت على أكثر من أربعمئة شعب وأمة وقبيلة[٣] كانت تنتشر في الشمال الأميركي فوق مساحة أكبر من أوروبا بنصف مليون ميل مربع، وكل ما واكب هذه الإبادة من فظائع كانت مجرد «مأساة غير مقصودة حدثت برغم الرغبة الجادة والأكيدة لدى الأوروپيين في الحفاظ على حياة الهنود، وأن السبب الأول لموت الهنود هو الأوبئة التي لم يكن لديهم مناعة ضدها. فالطبيعة، وليس الأذى المتعمد، هي السبب في هذا الدمار»[٤]. وبالتأكيد فإن صاحب هذا التشويه التاريخي وأكثر المتعصبين حماسة لعامل الأمراض اليوم هم أولئك الحَصريون الذين يحبون أن يحتكروا فكرة الضحية لأنفسهم، ولا يريدون للذاكرة الإنسانية أن تسجل جريمة أكبر من الجريمة التي ارتكبها النازيون بحقهم وحدهم، بل إن فيهم من يحب أن يفلسف هذا التمييز الهولوكستي ليقول إن القتل النازي كان من أجل القتل، أما ما جرى في العالم الجديد فقد كان له ما يبرره!

وبهذه العنصرية التي تسللت بكل ساديتها إلى مملكة الموت أقيم متحف الهولوكست في واشنطن على أنقاض السوق التجاري

لمدينة نَكُن شَتَنكه الهندية وفوق رمم شعب الكونوي[٥] الذي أباده الغزاة في ١٦٢٣. هنا على ضفاف نهر الپوتوماك تورط المستعمرون الإنكليز تلك السنة في إحدى حروبهم الشفافة عند مفاوضاتهم مع القبائل التي كان يعيش بعضها حيث يقام متحف الهولوكست اليوم. كان الزعيم الهندي تشيسكياك Chiskiack يتولى المفاوضات. وقد دشنها الإنكليز بدعوته هو وحاشيته الهنود لشرب الأنخاب تعبيراً عن «الصداقة الخالدة بين الأمتين». وكانت أنخاب الصداقة، كالعادة، مسمومةً طرحت الزعيم تشيسكياك صريعاً تحت أقدام مفاوضيه، وقتلت معه أسرته ومستشاريه ومئتين من حاشيته[٦].
ألم يكن جورج واشنطن يعلم بما جرى لشعب الكونوي ومدينته التجارية نكن شتنكه عندما أعلن أن الأرض التي اختارها لبناء عاصمته هي مجرد مستنقعات خاوية marchy wilderness؟ ألم يلحظ تخمة الغربان وامتلاء التماسيح؟

عبارة «العامل الطبيعي» التي يتكيء عليها محتكرو الهولوكست لتبرير انتصار الموت ليست في الواقع إلا الترجمة الحديثة لعبارة «العناية الإلهية» التي استخدمها قبلهم أنبياء المستعمرين الإنكليز في أوائل القرن السابع عشر عندما قالوا إن هذه الأوبئة نعمة أرسلها الله لتطهير الأرض التي أعطاها لشعبه. ومنهم من اعتبرها، كما يروي تودوروف، معجزة لا تقل عن معجزة الأوبئة العشرة التي يقال إنها فتكت بالمصريين في زمن موسى. حتى قبل أن تبحر سفينة الحجاج الأولى ماي فلور Mayflower من ساوث هامپتون لم ينس الملك جيمس أن يحمد الله على هذا «الوباء البديع wonderful plague الذي أزاح المتوحشين من بين أقدامنا»[٧]. وهذا ما أعاد صياغته بلغة مختلفة جون ونثروب John Winthrop الحاكم الأول لمستعمرة مساشوستس في رسالة إلى ناتنيال ريش بتاريخ ٢٢ أيار/مايو ١٦٣٤

يطمئنه فيها إلى أن المستوطنين الأربعة آلاف في صحة جيدة: «فبفضل الله ونعمته لم يمت منهم في السنة الماضية سوى اثنين أو ثلاثة بالغين وبعض الأطفال، وكنا نادراً ما نسمع عن مرض الملاريا أو غيرها من الأوبئة... أما السكان الأصليون فإنهم ماتوا كلّهم تقريباً بالجدري، وبذلك أعطانا الله صك ملكية هذه الأراضي»[٨].

كانت أكوام الهياكل العظمية تنتشر على طول شواطىء فرجينيا و[ولايتي] كارولينا [الشمالية والجنوبية اليوم] في منظر ألهم المستعمرين أن يسمّوا البلاد بالجلجلة الجديدة New Found Golgotha لكنها «جلجلة بهيجة أثلجت قلوب مكتشفيها لأنها آية إلهية تدل على رضا السماء عن موت الهنود وعن مواكبة العناية الإلهية لاستعمار العالم الجديد»[٩].

وكان وليم برادفورد حاكم مستعمرة پليموث يرى أن نشر هذه الأوبئة بين الهنود عمل يدخل السرور والبهجة على قلب الله، «فمما يرضي الله ويفرحُه أن تزورَ هؤلاء الهنود وأنت تحمل إليهم الأمراض والموت. هكذا يموت ٩٥٠ من كل ألف منهم، وينتن بعضهم فوق الأرض دون أن يجد من يدفنه. إن على المؤمنين أن يشكروا الله على فضله هذا ونعمته»[١٠]. كانت هذه «المعجزات» الإلهية صورة عن رغبات المستوطنين وطموحاتهم. فلطالما توحدت القدرة الإلهية مع الشعب المختار كما يرى كوتون ماذر أحد أبرز أنبياء أرض كنعان الجديدة «فبعد أن ظن هؤلاء الشياطين أن بُعدهم عن العالم سينقذهم من الانتقام استطاع الله أن يحدد مكانهم ويكتشفه، وأرسل قديسيه الأبطال من إنكلترا، وأرسل معهم بعض الأوبئة السماوية القاتلة التي طهرت الأرض منهم. إن الله يفسح مكاناً لشعبه في هذه المجاهل

إذ هو يقتل الهنود بأوبئة من أنواع مدمّرة لا يعرف لها البشر مثيلاً إلا ما تحدثت عنه التوراة»[١١].

وماتزال أرستقراطية الاجتياح إلى اليوم تقيم الصلوات والمهرجانات والتماثيل ابتهاجاً بهذا الموت الذي صنعته بأعمال السخرة تارة وبالتجويع تارة وبتبادل الهدايا المسمومة تارات. إنك لو زرت سان فرانسيسكو وسقت على الطريق ١٠١ أو ٢٨٠ سترى فوق رأسك تمثالاً عملاقاً يرتفع أكثر من عشرة أمتار في السماء ويمد سبابته المكتنزة نحو الأفق كفوهة المدفع القديم. تمثال له شكل الكابوتشينو البارد شيّد تخليدًا لجونيبرو سِرّا Junipero Serra مدير أحد أكبر معسكرات الموت في شمال كاليفورنيا. كان سّرا يتلذذ بتعذيب ضحاياه وشنقهم بالجملة، وكان صاحب الدعوة الشهيرة إلى تفعيل «العامل الطبيعي» بذبح كل العرق الهندي: The entire race of Indians should be put to knife. إن معسكره مايزال قائما إلى الآن، يحيط بفناء واسع يذكرك بضحايا فِناء الكوليسيوم الروماني، وتتقدمه مقبرة كبيرة تجوس فيها أشباح الجلاد المقدس. حتى داروين نفسه في رحلته الأسطورية على متن السفينة بيغل Beagle إلى كثير من بقاع أميركا وعدد من الجزر و«المجاهل» التي سبقته إليها سفن الغزاة لاحظ هذا التلازم بين ظهور «العامل الطبيعي» وبين الاجتياحات الأوروبية، وكتب في مذكرات رحلته *The Voyage of the Beagle* ملاحظة لا تقل أهمية عن نظريته في الانتخاب الطبيعي فقال: «إنه حيثما خطا الأوروبيون مشى الموت في ركابهم إلى أهل البلاد» [التي يجتاحونها]. وكذلك لاحظ هوارد سيمبسون Howard Simpson في مقدمة كتابه الرائع عن دور الأمراض في التاريخ الأميركي *Invisible Armies* أن المستعمرين الإنكليز لم يجتاحوا أميركا «بفضل عبقريتهم

العسكرية، أو دوافعهم الدينية، أو طموحاتهم، أو وحشيتهم، بل بسبب حربهم الجرثومية التي لم يعرف لها تاريخ الإنسانية مثيلاً».

هوامش الفصل الأول

(١) ظلت مؤسسة سميثسونيان Smithsonian الثقافية الرسمية لفترة طويلة تصر على الزعم بأن عدد سكان أميركا الشمالية عند وصول كولومبس لم يتجاوز المليون. ومع تزايد الاحتجاجات تبرعت المؤسسة بمليون إضافي وقفزت بالرقم إلى مليونين. ولم يكن الرقم الأول ولا الثاني يستندان إلى دراسة علمية، بل كانا أشبه برمية النرد. ويعتقد فرانسيس جننغز Francis Jennings الرئيس السابق للجمعية الأميركية للدراسات العرقية والمدير السابق لمركز تاريخ الهنود الأميركيين ومؤلف كتاب «اجتياح أميركا *The Invasion of America*» أن تقديرات سميثسونيان العشوائية ومعظم ما يماثلها مبنية على افتراضات زائفة ذات طابع عنصري. ومع خمسينيات القرن العشرين بدأت جامعة كاليفورنيا في بيركلي بإجراء أبحاث تعتمد على ما يمكن تسميته بعلم الآثار الزراعي Agricultural Archaeology خلصت منها إلى أن عدد سكان أميركا في زمن كولومبس كان يزيد على مئة مليون. وبتطبيق هذه التقنية على الشمال الأميركي توصل هنري دوبينز Henry F. Dobyns في كتابه «أرقامهم التي هزلت... *Their Number Became Thinned: Native American Population Dynamics in Eastern North America*» إلى أن العدد كان في حدود ١١٢ مليوناً، بينهم ١٨,٥ مليون في أراضي ما يسمى اليوم بالولايات المتحدة الأميركية.

(٢) يصنف دوبينز في المصدر السابق أنواع الحروب الجرثومية الشاملة التي تعرض لها الهنود خلال القرون الأربعة الماضية والتي صرنا نملك معلومات عن ٩٣ وباء شاملاً منها كالتالي: ٤١ جدري، ٤ طاعون، ١٧ حصبة، ١٠ أنفلونزا، و٢٥ سل ودفتريا وتيفوس وكوليرا. وقد كان لكل من هذه الحروب الجرثومية آثار وبائية شاملة تجتاح مساحات شاسعة من الأراضي من فلوريدا في الجنوب الشرقي إلى أورغون في الشمال الغربي، بل إن بعض الجماعات وصلتها الأوبئة وأبيدت بها قبل أن ترى وجه الإنسان الأبيض.

(٣) تعترف مصادر التاريخ المنتصر بهذا العدد من الأمم والشعوب الهندية وإن كانت تقلل من عدد أفرادها، غير أن الأبحاث التاريخية تقول إن هذا الرقم شديد التواضع وأن أمماً هندية كثيرة غير هذه الأربعمائة المعترف بها قد محيت من ذاكرة البشر. ففي عام ١٨٢٨ مثلاً سافر عالم الأحياء الفرنسي جان لوي برلاندييه Jean Louis Berlandier عبر تكساس ولاحظ أن الـ ٥٢ أمة هندية التي تعرفت عليها بعثة لاسال La Salle قبل حوالى ١٥٠ سنة أبيدت نهائياً ومحي ذكرها باستثناء أربع أمم فقط.

طبعاً، لا نعرف كم أمة أبيدت قبل مدونات لاسال، فحين كان لاسال في لويزيانا عام ١٦٨٢ مثلاً وضع أكثر من علامة استفهام حول الخرائط والحوليات التي تركتها بعثة دوسوتو De Soto، ذلك لأنها تشير إلى وجود عدد كبير من الشعوب الهندية التي لم يجدها لاسال نفسه بعد أن تم تدميرها منذ زمن طويل. انظر Jean Louis Berlandier في كتابه *The Indians of Texas in 1830*، ص ٧٤.

(٤) Steven T. Katz في كتابه *The Holocaust and Mass Death Before the Modern Ages*، ص٢٠. وبخصوص التمييز الهولوكستي في الجملة التالية راجع مقدمة Terrence Des Pres لكتاب Jean François Stiener بعنوان *Treblinka*، ص ٩.

(٥) رويتُ قصة اكتشاف هذه المدينة الهندية وشعبها في «تلمود العم سام». راجع *The Open Veins of Jerusalem*، جسور ٩/١٠، ص ٩-٧٦.

(٦) راجع J. Leitch Wright في كتابه *The Only Land They Knew*، ص ٧٨.

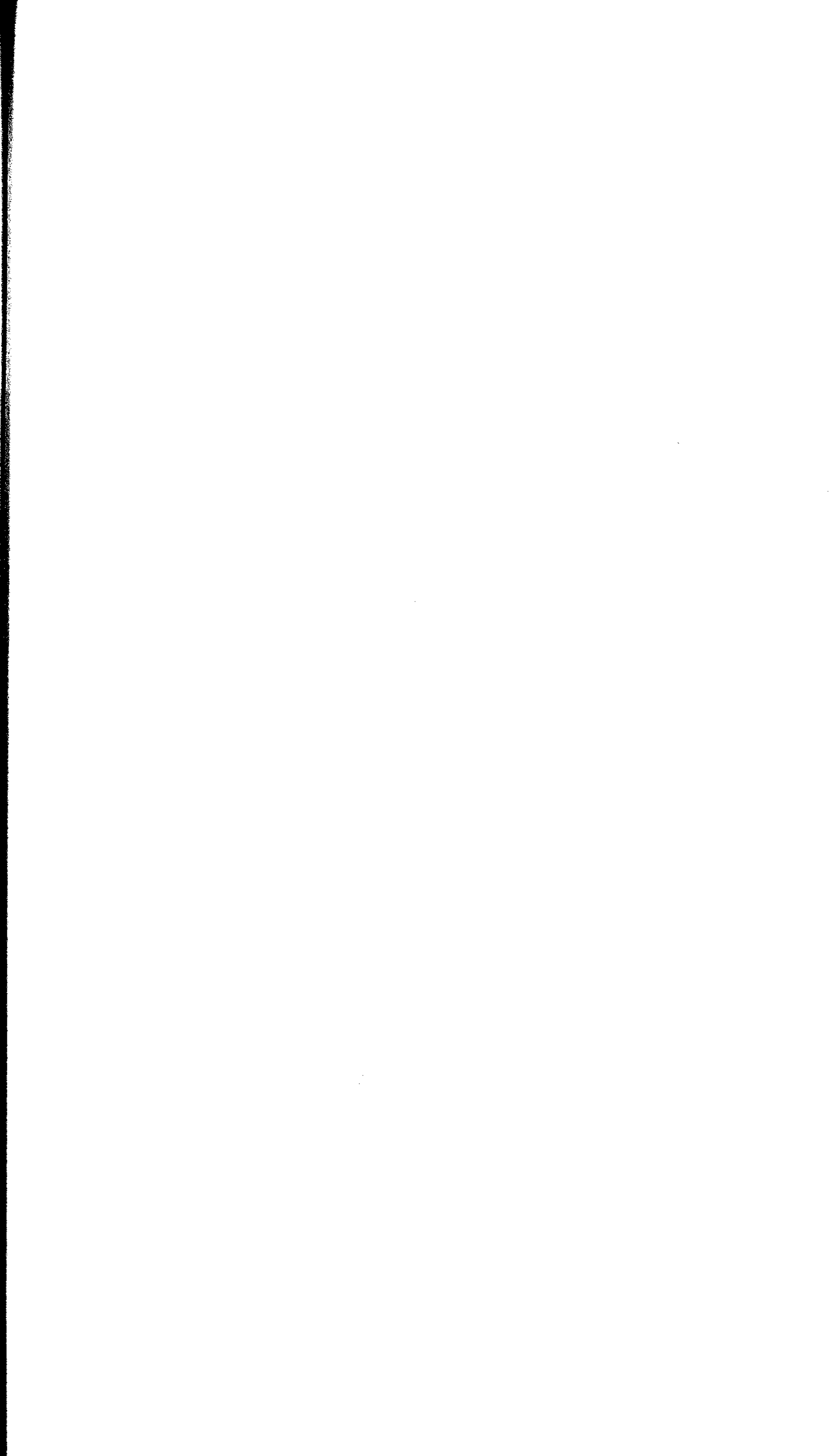
(٧) Feenie Ziner في سيرة حياة *Squanto* ص١٤٧.

(٨) الرسالة منشورة في *Letters from New England* بتحرير Everett Emerson، ص ١١٥-١١٦.

(٩) راجع Thomas Morton في *New English Canaan*، ص ١٣٣. والجلجلة أو «الجلجثة» كلمة آرامية تعني الجمجمة، أو تلاً له شكل الجمجمة. وهو المكان الذي يقال إن السيد المسيح صلب فيه.

(١٠) William Bradford في *Of Plymouth Plantation*، ص ٢٧٠-٢٧١.

(١١) Cotton Mather، في مجموعته الكبيرة *Magnalia Christie Americana*، ص ٨٩. وهي من مصادر هذا البحث الأساسية. وماذر يشير هنا إلى ما يعرف بالأوبئة العشرة التي تزعم التوراة أن يهوه انتقم بها لشعبه من المصريين. وهذا ما ليس له أي أصل تاريخي.



الفصل الثاني

هذا الجنس اللعين!

«في بعض الأماسي، أجلس أمام نهرنا،
نهر «الميزوري» العظيم.
الشمس تغيب، والغسق يذوب في المياه. وتلوح لي
في تلك الظلال قريتنا الهندية... وفي هدير النهر
أسمع جلبة المقاتلين تموج مع قهقهات الصغار والكبار.
لكنني أحلم! نعم. إنها ليست إلا أحلام امرأة عجوز
فأنا لا أرى إلا أشباحاً، ولا أسمع إلا هدير المياه
... ثم تنفجر الدموع في عينيّ، لأنني أعرف
أن رجالنا ذُبحوا وأن حياتنا الهندية انتهت.. إلى الأبد».

واهيني (امرأة من شعب هيداستا)، ١٨٨٥

هنالك اليوم أكثر من دليل على أن هؤلاء الذين كانوا ينشرون الأوبئة حيثما تطأ أقدامهم كانوا يعرفون من تجاربهم السابقة أن سياسة

العمل بالسخرة والتجويع الإجباري والترحيل الجماعي وتقويض معنويات الضحايا تشحذ أنياب الأوبئة وتزيدها فتكاً. إن معظم هؤلاء القديسين تمرسوا في الاجتياحات الإنكليزية لإيرلندا أو في الحروب مع الأتراك. ومعروف أن الكابتن جون سميث John Smith مؤسس أول مستعمرة إنكليزية دائمة في العالم الجديد بدأ نشاطه العسكري ضد الإسبان قبل أن يدرك العشرين، ونال رتبة كابتن حين تطوع في الجيش النمساوي وحارب العثمانيين الذين أسروه وباعوه عبدًا لرجل تركي. وقد أمضى سنتين في العبودية قبل أن يَقتل سيّده – كما تزعم أسطورته – ويهرب عائداً إلى إنكلترا.

وفعلاً فقد كان نظام السخرة من أفتك أسلحة الأوبئة، ولا سيما في فلوريدا وتكساس وكاليفورنيا وأريزونا ونيومكسيكو. كان الهدف المعلن هو تمدين هؤلاء المتوحشين في الدنيا وإنقاذ أرواحهم في الآخرة. وبالطبع، كان لا بد من «أضرار هامشية» ترافق انتشار الحضارة وطريقة حياتها. فحملات التمدين والتطهير الروحي لم تكن إلا مصائد خرافية لتعليب هذا السردين الآدمي. كان هناك جنود مدربون على هذا الصيد يطاردون الهنود كما يطارد رعاة البقر جواميس البراري عبر أسوار منصوبة على شكل زاوية حادة تظل تضيق عليها وتضيق إلى أن يصبح أمام هذه البهائم الغافلة «خيار وحيد» اسمه المصيدة. مصائد أشبه بحظائر الكلاب، لا يخرجون منها إلا للتغوط الجماعي المقنَّن في حفر مفتوحة، أو للعمل الإجباري في الحقول والطواحين والأعمال القذرة من الصباح إلى المساء. خلال أسابيع قليلة كان الهندي يموت من المرض والإجهاد وسوء التغذية، فقد كانت كمية الطعام التي تقدم للعبد الأسود تعادل ثمانية أضعاف الطعام الذي يُقدم للهندي. ولم يكن ذلك حباً بأفريقيا أو غراماً بالسود أو تمييزاً عنصرياً، بل كان

سببه الأول والأخير أن الهنود أرخص من السمك، فهم في متناول اليد وكلفة استبدالهم أرخص من إطعامهم، أما استيراد العبد الأفريقي فدونه خرط المحيط[١].

في عام ١٨٤٦ احتلت جيوش الولايات المتحدة كاليفورنيا. وتقول الإحصائيات إن عدد هنود كاليفورنيا في تلك السنة كان أقل من ربع ما كانوا عليه في عام ١٧٦٩. ومع ذلك فخلال العشرين سنة الأولى من احتلال هذه الولاية أبيد ٨٠ بالمئة من هذا «الربع» بسبب نظام السخرة. إن «ثروة الأمم» التي أعطت السلطة السياسية لأصحاب مناجم الذهب والمزارع الأسطورية سرعان ما شرّعت استعبادَ الهنود كسلاح غير مباشر لإبادتهم كما تم قبل ذلك في كولورادو وغيرها من ولايات الذهب. ولأنه لا بد من يد عاملة رخيصة لاستثمار هذه الولاية الغنية فقد نشطت تجارة خطف أطفال الهنود. ولطالما كتبت صحف تلك الفترة عن الشاحنات المحشوة بأطفال الهنود وهي تهوي في الطرقات الريفية الخلفية إلى أسواق العبيد في سَكرامنتو وسان فرانسيسكو. ومع نقص عدد النساء في سنوات الاحتلال الأولى فقد زاد الإقبال على خطف الفتيات اللواتي يقدمن خدمة مضاعفة: العمل والمتعة. وهذا ما أحال آباء هؤلاء المخطوفين والمخطوفات إلى «عناصر شغب» تستأهل العقاب، وأدى كذلك إلى هرب معظم الأسر الهندية من منعزلاتها وأماكن سكنها التقليدية. أما شركات الخطف فقد تحولت إلى ميليشيات خيرية؛ إذ صار الخاطفون يقتلون الآباء ويشاركون الدولة في القضاء على عناصر الشغب، بينما يعتبرون خطف اليتامى وبيعهم مهمة إنسانية نبيلة وعملاً أخلاقياً يتباهون به.

في أوائل ١٨٥٠، وفي أول جلسة تشريعية لكاليفورنيا سنّت الولاية

قانون «حماية الهنود» الذي أضفى الشرعية على خطفهم واستعبادهم. واقتضت «حماية» الهنود بموجب الملحقات التي أضيفت إلى القانون في عام ١٨٦٠ إجبار أكثر من عشرة آلاف هندي على أعمال السخرة. ولأن معظم الذين هربوا بأرواحهم وفراخهم إلى الغابات والجبال الوعرة صاروا يعيشون في ما أصبح يسمى بأملاك الولايات المتحدة فقد تحولوا بموجب قوانين الذين سرقوا بلادهم إلى «لصوص معتدين على أملاك الغير». ولم تمض سنة على صدور قانون «حماية الهنود» حتى ضاق حاكم الولاية بيتر بيرنت Peter Burnett ذرعاً بحمايتهم وعبّر عن الحاجة إلى إبادة هذا «الجنس اللعين»، ووجّه رسالة إلى المجلس التشريعي قال فيها:

> «إن الرجل الأبيض الذي يعتبر الوقت ذهباً، والذي يعمل طول نهاره ليبني حياة سعيدة لا يستطيع أن يسهر طول الليل لمراقبة أملاكه...ولم يعد أمامه من خيار سوى أن يعتمد على حرب إبادة. إن حرب الإبادة قد بدأت فعلاً، ويجب الاستمرار فيها حتى ينقرض الجنس الهندي تماماً»[٢].

* * *

لم يكن الذين تم ترحيلهم جماعياً بأحسن حالاً من الذين خضعوا لأعمال السخرة والاستعباد. فبعد أن سنّ الكونغرس في عام ١٨٣٠ قانون ترحيل الهنود بالقوة من شرق المسيسبي إلى غربه، صار من حق كل مستوطن أن يطرد الهندي من بيته وأرضه وأن يقتله إذا لم يستجب لصوت العقل. وكانت «رحلة الدموع Trail of Tears» أولى ثمار هذا القانون. يومها حاصرت قوات من الجيش النظامي مَن لم يمت بعدُ من هنود خمسة شعوب هم الشيروكي Cherokee والشوكتو Choctow والشيكاسو Chickasow والكريك Creek

والسيمينول Seminole وحشرتهم في معسكرات جُهّزت سلفاً لتجميعهم في انتظار يومهم الموعود مع «الحضارة وطريقة حياتها». وما أن تأكد الجيش أنه لم يبق بيت ولا كوخ ولا خيمة ولا كهف ولا غابة ولا مقبرة تؤوي شبحاً أحمر حتى سيقت بقايا هذه الشعوب بنسائها وأطفالها وشيبها وعجزتها مئات الأميال عبر ولاية تنسي، فكنتكي، فإلنويز، فميزوري ليقطفها الصقيع والجوع والمرض والإجهاد روحاً روحاً. وككل حفلات الموت التي ترعاها الدولة فإن منظمي «رحلة الدموع» ساقوا الهنود عن قصد عبر مناطق يعرف القاصي والداني أنها كانت موبوءة بالكوليرا وغيرها من الأمراض، وأطعموا ضحاياهم من طحين فاسد ولحم منتن.

كان «العامل الطبيعي» في أوج نشاطه، فقد مات ١٥ بالمئة من مهجّري شعب الشوكتو الأربعين ألفاً، وكذلك كانت نسبة مَن تساقط من شعب الشيكاساو. أما شعبا الكريك والسيمينول فمات منهم أكثر من نصف مهجّريهم، سقط معظمهم في الأيام الأولى من «رحلة الدموع»، بينما حصدت الحمّى الصفراء منهم ٣٥٠٠ ضحية. ومات من مهجّري شعب الشيروكي ٥٥ بالمئة بالأمراض والجوع والإجهاد المضني الذي عانوه أثناء الترحيل القسري[٣]. ويقول جيمس موني James Mooney الذي استجوب عدداً من الذين شاركوا في عملية الترحيل: «لقد تم نشر الجيش في معظم مناطق الشيروكي، وبدأ الجنود بتمشيط المدن والقرى والغابات والكهوف وضفاف الأنهار لصيد الناس وجمعهم في حصون. كان هؤلاء يرون بأعينهم كيف تأكل النيران بيوتهم وحقولهم وقراهم على يد مستوطنين يزحفون وراء الجنود للسرقة والنهب واغتصاب أملاكهم بما في ذلك نبش الفضة والذهب والأحجار الكريمة من باطن قبور أهلهم وأحبابهم»[٤].

وكان ذلك القرن قرنَ الترحيل القسري المنظم لكل الشعوب الهندية التي كانت تعيش شرق الميسيسيپي. فما جرى للشيروكي تكرر بصورة كلاسيكية مع كل الشعوب الهندية في الشمال الأميركي؛ من حدود المكسيك جنوباً حتى القطب شمالاً، ومن ماريلاند وڤرجينيا شرقاً حتى أورغون وواشنطن على المحيط الهادي. كلهم قضوا بنسب متفاوتة، بين شعوب اختفت تماماً من الذاكرة البشرية وشعوب تراوح نسبة الناجين منها بين ٥ و١٥ بالمئة مما كانت عليه بعد موجات الإبادة الأولى التي اشترك فيها الإسبان بشكل أساسي ومعهم بعض الشعوب الأوروپية الأخرى مثل البرتغال والفرنسيين والألمان. فبعد أقل من ثلاثين سنة مضت على «رحلة الدموع» سيق مَن تبقّى من شعب الناڤاهو Navajo أيضاً في هجرة قسرية مختلفة تعرف باسم «المسيرة الطويلة The Long Walk». في البداية، تكاتفت جهود الجيش والمستوطنين لصيد «آخر الناڤاهو» وتجميع طرائدهم في معسكر خاص بأريزونا استعداداً لترحيلهم مشياً على الأقدام أو على ظهور الدواب التي نفق معظمها قبل الإقلاع. ثم تولت قوى الجيش ترحيلهم من أريزونا إلى نيو مكسيكو؛ أكثر من أربعمئة كيلومتر في صقيع شتاء تلك الطبيعة الوحشية حيث مات منهم نصف أحيائهم بحسب أكثر التقديرات تواضعاً[٥]. كذلك خسر شعب الشايين Cheyenne نصف بقاياه النادرة أثناء ترحيله بالقوة إلى مثواه الأخير في معسكر للموت البطيء في أوكلاهوما. وهناك تعرضوا لسياسة التجويع والحصار التي لم ترفع عنهم، جزئياً، إلا بعد التوقيع على اتفاقية تنازلوا فيها عن معظم أراضيهم.

* * *

سياسة التجويع والتدمير الشامل للبنى الاقتصادية اللازمة

للحياة كانت من أهم أسلحة الإبادة، سواء في أثناء الترحيل القسري حيث كان الطعام قليلاً وملوثاً، أو في معسكرات المثوى الأخير حيث تكفلت سياسة التجويع غالباً بصياغة بنود اتفاقيات الهدنة. ويروي كينيث كارلي Kennith Carley في «انتفاضة [شعب] سو *The Siox Uprising of 1862*» كيف تعرض هنودُ سانتي داكوتا المسالمون للتجويع القاتل، وكيف أن أندرو ميريك مفوض الدولة الاتحادية للإعاشة أجاب على احتجاجاتهم قائلاً لزعيمهم تاوياتِدوتا Taoyateduta المعروف باسم الغراب الصغير: «اذهب أنت وشعبك فكلوا من حشيش الأرض وإذا شئتم فكلوا خراءكم». عندها لم يتمالك تاوياتِدوتا أعصابه فهجم على المفوض وقتله ثم حشا فمه – وكان مهذبًا – بالحشيش فقط. وهذا ما أدى إلى تعليق مشانق كل زعماء السانتي وإلى انتفاضة شعب السو الشهيرة عام ١٨٦٢.

بدأت سياسة التدمير الشامل لكل أسباب الحياة الهندية في العالم الجديد منذ اللحظة الأولى لشروق الشمس الإنكليزية على جزيرة روانوك التي استقبلهم أهلها عام ١٥٨٠ بالترحاب فأقطعوهم ما شاءوا من الأرض وآووهم وكسوهم وأطعموهم الطعام على حبه وعلموهم أسباب البقاء في هذه الطبيعة الغريبة عنهم. ولكن ما أن اشتد ساعدهم قليلاً حتى راحوا يخترعون الأعذار للقتل العشوائي ويتحيّنون الفرص لإتلاف المحاصيل وإحراق القرى والحقول وقطع أسباب الحياة عن الهنود عمداً. وكان الهنود قد لاحظوا منذ الأيام الأولى أن المستعمرين ينبشون القبور لسرقة ما فيها أو لأكل جثثها الطازجة أحياناً(٦). ثم تصاعدت خطة التجويع والتدمير الاقتصادي وازدادت تنظيماً وتركيزاً واستهدافاً على مدى القرنين التاليين إلى أن أصبحت في القرن التاسع عشر

سياسة رسمية معلنة للولايات المتحدة الأميركية، كما يروى إدموند مورغن(٧) Edmund S. Morgan. وكانت مستعمرة جيمستاون، وهي أول مستعمرة إنكليزية دائمة في شمال أميركا، قد رسمت الملامح الأساسية لهذه السياسة في عام ١٦١٠، أي بعد أن مضى أقل من ثلاث سنوات على تأسيسها عند مصب النهر الذي سمي باسم الملك جيمس. فتحتَ عنوان «حق الحرب» أعلنت هذه السياسة – كما نشر بيانها بعد ذلك في لندن عام ١٦٢٢ – عن حق الإنكليزي باعتباره من «الشعب المختار» المتفوق بالوراثة في «أن نجتاح البلاد وندمر أهلها... حيثما تحلو لنا مواطنهم الخصبة... وأراضيهم التي سنستوطنها بعد تطهيرها من سكانها»٨. إنها مجرد «أضرار هامشية» ترافق انتشار الحضارة وطريقة حياتها. فتحقيق هذه السياسة التوسعية يحتاج بالتأكيد إلى موجات متلاحقة من الترحيل القسري والمذابح الجماعية وما صار يعرف لاحقاً بعقيدة «القدر المتجلي Manifest Destiny» التي تقول بحتمية وقدرية التوسع الأميركي والزحف مع دوران الشمس حيثما تدور من الشرق إلى الغرب، وهي العقيدة التي استعارها هتلر بعد حوالى نصف قرن بكثير من التواضع والحذر وسماها «سياسة المجال الحيوي Lebnsraumpolitik» (كما سأبين لاحقاً).

وكان مجلس فرجينيا قد أضاف إلى بيان «حق الحرب» بندًا أساسياً لتزيين سياسة التوسع بمعاهدات سلام واتفاقيات تخدر الفرائس إلى أن يحين وقت صيدها، وتمنح شعب الله فرصة أفضل للمباغتة والتدمير. لم يكن لاتفاقيات السلام إلا هدف واحد هو خرق هذه الاتفاقيات. فحين يطمئن الهنود إلى أن الاتفاقية قد كفتهم شرَّ القتال وهَمَّ الحذر والحراسة؛ «عندها [كما يقول

مجلس دولة ڤرجينيا] يتوجب علينا أن نغتنم الفرصة فنفاجئهم ونتلف محاصيلهم ونحرق حقولهم»[٩].

في غارة واحدة، كما يروي جيمس أكستل James Axtel في كتابه «ما بعد كولومبس *After Columbus*»، أتلف المستوطنون كمية من الذرة كافية لإطعام أربعة آلاف إنسان لمدة سنة كاملة.» بينما يقدم فيليب بروس Philip A. Bruce في كتابه عن «التاريخ الاقتصادي لڤرجينيا *Economic History of Virginia*» حسابًا آخر لهذه الغارة فيقول إن الإتلاف طال ثلاثة آلاف فدان من الحقول. وفي أواخر الشتاء اعترف هنود إمبراطورية اليوهاتن بأن عدد موتاهم تلك السنة أكبر من عدد كل الذين ماتوا خلال الخمس عشرة سنة الماضية التي «استضافوا» فيها الإنكليز بينهم. وكانت هذه الإمبراطورية من أكبر فيدراليات شواطىء الأطلسي الوسطى، تزيد مساحتها على مساحة الجزيرة البريطانية وينضوي تحت لوائها خمسة شعوب هندية وبعض القبائل الصغيرة لا يقل عددهم عن عدد سكان بريطانيا في تلك الأيام، لكنها، بعد أقل من عشرين سنة من الوجود الاستعماري الإنكليزي «لم تعد أمة» كما أوضح المستوطن روبرت بينِت Robert Bennett في رسالة شماتة كتبها إلى أخيه إدوارد في ٩ يونيو/ حزيران ١٦٢٣.

عشرون سنة من «الأضرار الهامشية» وتحولت هذه الإمبراطورية العظيمة إلى ما هو «أقل من أمة».

واستمرت إبادة اليوهاتن بانتظام ودأب وتصميم، إذ كان يقتل منهم المئات في مناوشة بعد مناوشة، ويقتل المئات بالتسميم الجماعي أو في طراد كلاب الصيد الدموية وكلاب الحراسة التي كانت

تتعقبهم. وكانت دعوات المستعمرين إلى السلام لا تتم إلا حين الحاجة إلى الاستجمام والراحة وتحضير السموم. وقبل أن ينتصف القرن أسِر خليفة پوهاتن المعروف باسم أوپشَنكانو Opechacanough وألقي به في زريبة صغيرة حيث عومل كما تعامل البهائم. ولحسن حظه فإنه بعد أسبوع من أسره أطلق مستوطن عليه النار من خلفه فقتله وأنهى عذابه. وكان زعيم الپوهاتن يومها عجوزاً ضريراً عاجزاً عن المشي.

بعد حوالى قرن من «انتشار هذه الحضارة وطريقة حياتها» شاءت معجزات «العناية الإلهية» أن لا تُبقي من سكان إمبراطورية البوهاتن أكثر من ٦٠٠ إنسان حيٍ، وأن تجعل بلادهم «مغطاة بالهياكل والجثث التي لم تجد أحداً يدفنها»(١٠).

ولم تكن إمبراطورية پوهاتن فريدة في مصيرها، فقد تبنّت يومها كل المستعمرات الإنكليزية خطة مشتركة أطلقها وليم بيركلي Sir William Berkeley حاكم ڤرجينيا المتهم من قبل منافسه ناتنيال بيكون Nathaniel Bacon بسياسته الممالئة للهنود! وتقتضي الخطة التي وضعت حدًا للجدال حول أولوية الإبادة أم الاستعباد بتنظيم حملات إبادة لكل البالغين الذكور على أن يتم تمويل هذه الحملات من عائدات بيع الأطفال والنساء في أسواق العبيد(١١).

* * *

وأعيد سيناريو العمل بالسخرة والتجويع الإجباري والترحيل الجماعي وتحطيم المعنويات مع كل مرحلة من مراحل التوسع. ففي عام ١٨٧٠، كما يروي ريتشارد درينون Richard Drinnon

في كتابه التحليلي لعنصرية الزنابير «حارس معسكرات الإبادة *Keeper of Concentration Camps*»: اجتاح الجنرال جورج كلارك George R. Clark مناطق هندية تابعة لما صار يعرف اليوم بولايات أوهايو وإنديانا وإلينويز، وكتب في تقديره للأضرار «الهامشية» الأولية: «إن أكثر من خمسمئة هكتار من حقول الذرة تم إتلافها، إضافة إلى مزارع كل ما يمكن أكله من خضار ومزروعات حول مدينتي شيليكوت Chillicothe وپيكا Piqua الهنديتين التابعتين لشعب الشاوني». وبعد خمسة عشر عاماً كتب الجنرال أنتوني واين المعروف لدى أصدقائه وأعدائه باسم أنتوني المسعور (لعله جد الممثل الكاوبوي جون واين) بعد حملة على شعب الشاوني وحلفائه:

> «أمضينا ثلاثة أيام بلياليها على ضفاف الومي... ونحن ندمر البيوت والقرى ونتلف حقول الذرة الممتدة إلى نهاية الأفق. وفي بعض الأحيان أحرقنا حقولاً للذرة كانت تمتد أكثر من خمسين ميلاً (حوالى ٨٠ كلم) على ضفة النهر».

وعلى خطى المستعمرين الأوائل الذين أبادوا شعب الپيكو فشعب الناراغنست وغيرهما من شعوب المنطقة التي أطلقوا عليها اسم «إنكلترا الجديدة» قام مستعمرو كارولينا بإبادة شعب التوسكارورا أحد أكبر شعوب المنطقة وأكثرها قوة ورخاء. وتحت الأعذار الكثيرة التي يتقدمها عذر أن الهنود اعتدوا على المستعمرين المسالمين فلم يسمحوا لهم بالاستيطان السلمي والتوسع السلمي والنهب السلمي، تم إتلاف محاصيل التوسكارورا وحقولهم ومزارعهم وتعريضهم للجوع والاقتلاع وقضم حياة أبنائهم مناوشة بعد مناوشة. غير أن هذا التدمير المنظم بلغ ذروته ما بين ١٧١١ و١٧١٣ عندما أقنع المستعمرون شعوبَ الموسكيجي

Muskogees والشيروكي Cherokee والكاتاوباس Catawbas بأنهم أصدقاء مسالمون، وأن العدو الذي يهدد الحضارة والحياة هو شعب التوسكارورا القوي، وأن من مصلحة الإنكليز وكل الشعوب الهندية «المتحضرة» أن يتحالفوا ويضعوا حداً لعدوانه وخطره. هكذا بدأ «التحالف» بسلسلة من الغارات على قرى ومدن التوسكارورا وعلى عاصمته نيهوروكا Neoheroka فأحرقها وأباد أهلها وشرد الكثيرين منهم إلى الشمال حيث التحقوا بالأمم الخمس. غير أنه لم تمض سنوات أربع حتى دارت الدائرة على «الحلفاء» الذين جُرِّدوا سريعاً من لقب «التحضر» ولم يكن مصيرهم بأحسن من مصير إخوانهم «الوحوش».

* * *

كان الغزاة الأوائل يسمون بالحجاج أو القديسين، فقد كانوا يعتبرون هذا العالم الجديد بديلاً عن «أورشليم» والأراضي المقدسة. ولهذا فقد سموه بكل الأسماء التي أطلقها العبرانيون على بلاد كنعان. وما يزال التاريخ الأميركي إلى الآن يضفي على هؤلاء الحجاج قداسة طوباوية ويعتبرهم أول أنموذج للاستثناء الأميركي الذي فضله الله على العالمين وأورثه ما أورث بني إسرائيل من قبل، وجعل العهد الذي عقدوه مع الله على متن سفينتهم الأسطورية Mayflower من اللحظات النادرة الخالدة في التاريخ الإنساني كما يقول الرئيس الأميركي جون آدامس، فعهدهم مع الله جَبَّ عهدَ الإسرائيليين القدامى، وتأسيسُ مستعمرتهم على صخرة پليموث ضاهى تأسيسَ الكنيسة على صخرة بطرس.

قصة هؤلاء «الحجاج» هي الأصل الأسطوري لكل التاريخ

الأميركي ومركزيته العنصرية. وما يزال كل بيت أميركي يحتفل سنوياً في «عيد الشكر» بتلك النهاية السعيدة التي ختمت قصة نجاتهم من ظلم فرعون البريطاني و«خروجهم» من أرضه، و«تيههم» في البحر، و«عهدهم» الذي أبرموه على ظهر سفينتهم مع يهوه، ووصولهم في النهاية إلى «أرض الميعاد». ويعتبر هذا العيد الطقسي الذي يبجله الأميركيون وطنياً ودينياً» أكثر من أي عيد آخر (بما في ذلك عيد الاستقلال) من أكثر أعياد أميركا قدسية. في هذا العشاء الطقسي الذي يذبحون فيه سنوياً بين عشرين وثلاثين مليون «تركي» قرباناً لله الذي وقف منذ اللحظات الأولى لاستعمار أميركا إلى جانب شعبه الإنكليزي المختار، يستعيد الأميركيون أسطورة تاريخهم بكل ما يعنيه مرسيا إلياد بطقسية الاحتفال بالأسطورة. فهو طقس يتضمن تقديس فعل الاستعمار الاستيطاني والتأكيد على التفوق الطبيعي والأخلاقي للمستعمرين، وهو تأكيد على صدق الأسطورة وحياتها المتجددة، وهواحتفال برعاية الله لكل عناصر أسطورة الولادة المقدسة للتاريخ الأميركي، وهو - من خلال هذا الطقس الاحتفالي - يؤكد على التسامي بالأسطورة ومعايشتها كدين.

وتقول الأسطورة إن الحجاج اختاروا پليموث لجمالها وجداول مياهها العذبة وخيرها الوفير وحقولها الخصبة، كما تعترف بأن هنود الپيكو Pequots أنقذوهم من الموت جوعاً وأنهم لهذا أولموا لهم ودعوهم للاحتفال معهم في ما صار يعرف بعد أكثر من قرنين (عام ١٨٩٠) بعيد الشكر. وعلى الضفة الأخرى لهذه الأسطورة يعتقد الهنود الذين قدموا للحجاج ما لم يقدمه الأنصار للمهاجرين أن الجحود هو المعنى الحقيقي لعيد الشكر، لا لأن العيد كان عيد حصادهم الذي كانت تحتفل به الشعوب الهندية الشرقية سنوياً،

ولا لأن طعام ذلك العيد كان من صنع أيديهم ومن حلال مالهم وحقولهم وديكة غاباتهم، وإنما لأن الحجاج عضّوا اليد التي أطعمتهم وسقتهم وانتشلتهم من الموت المحقق.

كانت سياسة الإذلال والترويع التي انتهجها الحجاج ومِن قَبلهم مستعمرو ڤرجينيا أفضلَ تعبير عن شكرهم للضيافة الهندية. فكثيراً ما كانوا يقتلون الهنود الذين يحملون إليهم الطعام والهدايا، بل كانوا يقدمون لهم المغريات الكثيرة لزيارتهم من أجل أن يكمنوا لهم ويقتلوهم. وكانت الوسيلة المحببة لاستدراجهم واستخراج ذهبهم خطف أولادهم لما لاحظوه من تراحم الأسرة الهندية فيما بينها وتكافلها ورعايتها لأطفالها.

لقد أعطى هنود البيكو للحجاج ما أعطاه قبلهم هنود البوهاتن لمستعمري ڤرجينيا وعلموهم كيف يزرعون الأرض وكيف يعتمدون على خيراتها. فإذا كان للحجاج أن يشكروا أحداً فليشكروا هنود البيكو، أو ليشكروا سكوانتو Squanto على الأقل؛ هذا الطفل الهندي الذي خطفه نخاس إنكليزي صغيراً فاستعبده في بريطانيا ثم باعه نخاس إنكليزي آخر في ملقا، فعاش في بريطانيا وإسبانيا قبل أن يُفلت من العبودية، ويبدأ رحلة العودة إلى وطنه ويقطع المحيط الأطلسي ذهاباً وإياباً ست مرات لاقى فيها من الأهوال ما يجعل من أوديسة أوليس سباحة في برميل. لقد عاد سكوانتو إلى پليموث في عام ١٦١٩ ليجد أن «العامل الطبيعي» قد أباد كل قبيلته. ثم إنه عمل مترجماً متطوعاً بين الحجاج وبين الهنود ومستشاراً لدى الحاكم برادفورد، وكان وراء معاهدة «السلام» بين الحجاج وبين شعب الوامپانوغ Wampanoag وزعيمهم ماساسيوت، وترك لنا أول شهادة عن استخدام الحجاج للأسلحة

الجرثومية حيث كان في سعيه للقوة يهدد الهنود أحياناً بأنهم إذا لم يفعلوا ما يريد فإنه سيقنع الحجاج باستخدام أسلحتهم الجرثومية ضدهم. وتكشف قصة سكوانتو مع الحجاج التفوق الأخلاقي والعقلي والحضاري للهنود. وتروي عشرات الكتب التي أرخت لهذا الفتى الأسطورة وعشرات الأفلام وقصص التبشير التي استلهمت سيرة حياته وجنت منها الملايين كيف انتشل سكوانتو أسطورة أميركا من الموت في شتائها الأول حين أحضر للحجاج الطعام وعلمهم كيف يزرعون الذرة واليقطين وأنواع الحبوب والقرعيات، وأين يصطادون السمك ويسمدّون الأرض ببعض أنواعه، بل وكيف يغتسلون ويتخلصون من قذارتهم وروائحهم الكريهة عبثاً. وتتحدث فيني زاينر Feenie Ziner في كتابها عن سكوانتو وروبرت لويب Robert Loeb في كتابه عن «حقيقة الحجاج» وفرانسيس جننغز في «اجتياح أميركا» كيف أن سكوانتو لاحظ أثناء حياته في إسبانيا وإنكلترا أن الأوروبيين يكرهون النظافة وقلما يغتسلون أو يبدلون ثيابهم وكيف أنه تقزز من روائح الحجاج الكريهة وحاول عبثاً إقناعهم بالاغتسال والنظافة[١٢].

لقد أتى «العامل الطبيعي» على حياة سكوانتو سريعاً فألحقه الجدري بأهله الهنود وإن كان الحاكم وليم برادفورد – وهو من أبرز من أبرموا العهد مع الله على متن سفينة الحجاج ماي فلور – قد تمنى له مآلاً أرفع من مآل أهله وثنيي كنعان الجديدة فرثاه ودعا له بأن تصعد روحه إلى الرفيق الإنكليزي الأعلى في السماء «to the Englishman's God in Heaven». وقد كانت تلك الصلاة عملياً آخر عيد للشكر شهدته أميركا.

بعد حوالى ١٥ سنة على مصرع سكوانتو أتم الحجاج المرحلة

الأولى من إبادة هنود الپيكو وحلفائهم بالقتل المباشر وبتدمير كل أسباب حياتهم الاقتصادية، لكن جون مايسون John Mason الذي أسس قواعد مستعمرة كونِتيكت وكتب «التاريخ الوجيز لحرب الپيكو» يرى أن القتل المباشر كان السلاح المفضل لدى الحجاج، وأن حرق الحقول والمزارع كان عاملاً إضافياً. كان مايسون كغيره من أنبياء المستعمرات يعتقد أنه رسول العناية الإلهية إلى «أرض كنعان الفارغة»، ولطالما أكد على أن الله هو الذي وعد شعبه الإنكليزي بأرض كنعان التي لا يوجد فيها إلا القليل من البشر[١٣].

وهكذا لم تمض ستون سنة على ولادة الأسطورة الأميركية حتى قضى الحجاج ونسلهم المقدس على الكنعانيين هنود الپيكو والنيانتك عبر حرب تدمير منظمة شاملة للقرى والمدن والحقول وكل ما يعتبر ضرورياً لاستمرار الحياة.

في عام ١٩٧٠ سألت وزارة التجارة في ولاية مساشوستس بقايا هنود الوامپانوغ أن يختاروا منهم خطيباً للمشاركة في الاحتفال بالذكرى ٣٥٠ لعيد الشكر، ولكن بشرط أن تُعرض الكلمة على «زنابير» الوزارة قبل قراءتها. واختير فرانك جيمس لهذه المهمة، فكتب كلمتة وأرسلها إليهم. وبالطبع لم يسمحوا له بالمشاركة. وكان مما كتبه هذا الهندي:

> «هذا يوم عيد لكم وحدكم. إنه ليس عيدي. إنني أنظر إلى ما حدث لشعبي بقلب منفطر. فبعد يومين أو ثلاثة أيام من وصول الحجاج إلى «كايب كود» بدأوا بسرقة قبور أجدادي ونهب ما لديهم من ذرة وقمح وحبوب. لقد شاهد القائد الهندي العظيم ماساسيوت Massasiot زعيم شعب الوامپانوغ Wampanoag ما فعله الحجاج، ومع ذلك

فإنه هو وشعبه جميعاً رحبوا بالمستوطنين وأبدوا لهم خالص الود... إنه لم يكن يعرف أن الحجاج بعد أقل من خمسين سنة سوف يبيدون شعب الوامپانوغ وغيره من الشعوب الهندية المجاورة وسوف يقتلونهم جميعاً بالبنادق أو بالأمراض. نعم لقد أبادوا طريقتنا في الحياة وقضوا على لغتنا.. فلم يبق منا إلا القليل من الأحياء. وإنني حزين. وهذا ليس عيدي»(١٤).

* * *

أدى تطبيق تقنيات العمل بالسخرة والتجويع الإجباري والترحيل الجماعي وتحطيم المعنويات إلى شحذ أنياب «العامل الطبيعي» وإلى ما يعرف بالشتات الكبير The Great Dispersal الذي اقتلع عدداً كبيراً من الشعوب الهندية من أوطانها وساقها إلى الغرب أو إلى الشمال الكندي فراراً بحياتها وحياة أبنائها من الإبادة الشاملة. وقد كان هذا التدمير سياسة متعمدة سرعان ما اتضحت معالمها مع ما يسمى بحروب الاستقلال. ففي حملة ١٧٧٦ على هنود الشيروكي «حلفاء» بريطانيا تم إحراق المدن الهندية بمن لم يستطع الفرار منها، وأتلفت محاصيل الذرة، وسيق من بقي من الشيروكي إلى الغابات ليفنوا. ولم تمض ثلاث سنوات حتى أصدر جورج واشنطن أوامره إلى الجنرال جون سوليڤان بأن يحيل مساكن هنود الأوروكوا إلى خراب، وأن لا يصغي لنداء السلام حتى تمحى قراهم ومدنهم وآثارهم من وجه الأرض. وبعد أن نفذ الجنرال أوامر واشنطن كتب إليه يبشره بتحويل هذه «المنطقة الجميلة من حديقة بديعة إلى أطلال مهجورة تثير الرعب والمقت». وفي رسالة إلى جيمس دواين السناتور والمفوض

السابق للشؤون الهندية فسر جورج واشنطن المفهوم الأميركي للأضرار الهامشية التي ترافق انتشار الحضارة فقال: «إن طرد الهنود من أوطانهم بقوة السلاح لا يختلف عن طرد الوحوش المفترسة من غاباتها»[١٥]. هكذا أطلق هنود السينيكا على أبي الجمهورية الأميركية الأعظم جورج واشنطن اسم «هدّام المدن»، فبموجب أوامره المباشرة تم تدمير ٢٨ مدينة من أصل ٣٠ من مدن هنود السينيكا Seneca وحدهم، من البحيرات الكبرى شمالاً Erie حتى نهر الموهوك Mohawk، وفي فترة قياسية لا تزيد على خمس سنوات. وهذا ما فعله أيضاً بمدن وقرى الموهوك والأونونداغا Onondaga والكايوغا Cayuga، حتى إن أحد زعماء الأروكوا قال لواشنطن ذات لقاء في عام ١٧٩٢:

> «عندما يُذكر اسمك تلتفت نساؤنا وراءهن مذعورات، وتشحب وجوههن. أما أطفالنا فإنهم يتلببون بأعناق أمهاتهم من الخوف»[١٦].

ومضى الآباء المؤسسون جميعاً على خطى واشنطن، كما بيّن ذلك ريتشارد درينون في فصل كامل خصصه لذلك. حتى توماس جفرسون «رسول الحرية الأميركية» وكاتب وثيقة الاستقلال أمر وزير دفاعه بأن يواجه الهنود الذين يقاومون التوسع الأميركي بالبلطة، وأن لا يضع هذه البلطة حتى يفنيهم أو يسوقهم وراء الميسيسيبي.

> «نعم إنهم قد يقتلون أفراداً منّا، لكننا سنفنيهم ونمحو آثارهم من هذه الأرض. إننا مجبرون على قتل هؤلاء الوحوش أو طردهم مع وحوش الغابات إلى الجرود»[١٧].

وتروي إرنا غنثر في كتابها المثير عن مشاهدات الرحالة والمكتشفين وتجار الفرو في أواخر القرن الثامن عشر كيف دمر

المستعمرون صروحاً فنية فريدة لا تعوض فتقول:

«إن إحدى قرى هنود النوتكا Nootka وتسمى Opitstateh كانت تضم مئتي بيت في غاية الإبداع. فهي جميعاً مرسومة الجدران والسقوف ومزينة بتماثيل غريبة الأشكال. أما شبابيكها وأبوابها فلها شكل كائنات حية، ولكي تدخلها فإن عليك أن تعبر باباً له شكل الإنسان ورأس أحد الحيوانات. إنها ثمرة أجيال من العمل الفني دُمِّرت في لمح البصر وقتل جميع أهلها في مذبحة جماعية قال القائد الذي ارتكبها إنه فعل ما فعل مأموراً وإنه نادم على ما اقترفت يداه»(١٨).

* * *

لدينا اليوم أكثر من دليل على أن حصاد ملايين الأرواح بهذا «العامل الطبيعي» لم يكن طبيعياً، وأن الزنابير أرادوا متعمدين، عن سابق نية ومعرفة وإصرار، أن يلووا ذراع «العناية الإلهية» بسياسة العمل بالسخرة والتجويع الإجباري والترحيل الجماعي وتقويض معنويات الضحايا وشن الحرب الجرثومية التي استمرت في زمن «السلم» وزمن الحرب، مع المحترفين ومع الهواة، وبشكل جماعي منظم يمارسها الجيش و«الحلفاء» من الهنود، أو بشكل فردي تمارسها قطعان المستوطنين. أما الادعاء بأن إبادة ١١٢ مليون إنسان كان مجرد «مأساة مشؤومة غير متعمدة»، و«أضرار هامشية تواكب انتشار الحضارة» وأن هؤلاء الذين نسبوا هذه الإبادة الجماعية الأكبر والأطول في تاريخ الإنسانية إلى العناية الإلهية أو العامل الطبيعي هم أتقياء أبرياء لم تكن لديهم المعرفة العلمية الكافية فهو ادعاء يفتقر إلى البراءة ويتنكر أول ما يتنكر للمعرفة العلمية.

منذ أيام الطاعون الأسود كان الأوروپيون يعرفون هذا السلاح الجرثومي، وكانوا في حروبهم يستخدمون المنجنيق في قذف جثث الموتى بالطاعون أو جيف الحيوانات الموبوءة إلى داخل المدن التي يحاصرونها[١٩]. ومنذ السنوات الأولى للحج إلى پليموث اعترف الحاكم وليم برادفورد في يومياته بأن الأغطية الملوثة بجراثيم الجدري هي السبب في انتشار هذا الوباء بين الهنود «الذين نفقوا بسرعة كبيرة مثل أغنام موبوءة... فلم يعد هناك أحد يستطيع مساعدة المرضى أو يأتيهم بشربة ماء، أو يدفن موتاهم»[٢٠]. وكتب باري هولستون لوبيز في كتابه عن «الذئاب والبشر» أن

> «مستعمرة مساشوستس حظرت على المستوطنين استخدام المسدس في المناسبات غير الضرورية أو في أي لعبة إلا لقتل الهندي أو الذئب. كانوا يصنعون لحماً مسموماً للذئب وغطاء ملوثاً بجراثيم الجدري للهندي، وكانوا يُغِيرون على وكر الذئب ليقتلوا جراءه كما كانوا يخطفون أطفال الهنود. ولكي يبرروا لك كيف يقتلون جراء الذئاب وأطفال الهنود بطريقة واحدة يحكون لك حكايا عن فظاظة الهنود وعن ذئاب تأكل الخشف حيّاً»[٢١].

وكان هنود الناراغنستس Narraganssetts قد شكّوا منذ عام ١٦٣٣ بأن تكون العناية الإلهية أو «العامل الطبيعي» وراء هذه الحرب الجرثومية التي حصدت أرواح ٧٠٠ إنسان منهم بعد أن تلقوا من الحجاج هدايا ارتابوا في أنها مسمومة بجراثيم الجدري. هكذا تم استحضار المتهم الأول الكابتن جون أولدام بالقوة إلى جزيرة بلوك لمحاكمته أمام مجلس خاص من حكماء الهنود بتهمة القتل الجماعي المتعمد. وبعد أن ثبتت لديهم تهمته حكموا عليه بالإعدام.. وقتلوه[٢٢]. أما الحجاج فأنكروا التهمة وقالوا إنها بلا

دليل، ثم إنهم انتقموا لمصرع جون أولدام بإبادة معظم الناراغنستس في عام ١٦٣٧، وحسموا بذلك الصراعَ على المعرفة العلمية بحرب الجراثيم لأكثر من ١٣٠ سنة تفرد فيها «العامل الطبيعي» وحده بتفريغ الأرض وإعدادها لانتشار الحضارة.

في أواخر ما يسمى بالحرب الهندية – الفرنسية ظهرت أول وثيقة دامغة تثبت استخدام الغزاة للسلاح الجرثومي عمداً، وتؤكد أن إبادة الهنود بالسلاح الجرثومي كان سياسة رسمية. ففي سيناريو كلاسيكي منقح لقصة تسميم الزعيم تشيسكياك ومن معه بأنخاب «الصداقة الخالدة» على ضفاف نهر اليوتوماك، كتب القائد الإنكليزي العام اللورد جفري إمهرست Jeffrey Amherst في عام ١٧٣٦ أمراً إلى مرؤوسه الكولونيل هنري بوكيه Henry Bouquet يطلب منه أن يجري مفاوضات سلام مع الهنود ويقدم لهم بطانيات مسمومة بجراثيم الجدري «لاستئصال هذا الجنس اللعين to extirpate this execrable race». وقد اشتركت «قوى الحضارة» في حرب ضارية لإخفاء هذه الوثيقة وغيرها من الوثائق المشابهة عند اكتشافها في أواخر الثلاثينيات. ومايزال المؤمنون بوحدانية الهولوكست إلى الآن يحاولون إثارة الشكوك حولها والتقليل من شأنها واتهامها بأنها من حبك «عقلية المؤامرة»، وأنها ستشجع على الكراهية. وكان هوارد پيكهام رئيس الرابطة التاريخية الأميركية الذي اكتشف الوثيقة قد أخفاها وما معها من مرفقات لمدة سبع سنين بحجة «أنها تعطي انطباعاً سيئاً»، ولم يعترف بوجودها إلا عندما عثر عليها المؤرخ آلن ستيرن بالمصادفة. حتى الكتاب الذي وضعه واغنر وآلن ستيرن بعنوان «تأثير الجدري على مصير هنود أميركا» اختفى من الأسواق ومن معظم المكتبات الجامعية ولم تدخله مكتبة الكونغرس في فهارسها.

طلب اللورد إمهرست من الكابتن بوكيه، وبعبارات صريحة لا تحتمل التأويل أن ينشر مرض الجدري بين القبائل الهندية التي لم تصب به بعد. وأجاب بوكيه لاحقاً: «سأحاول جهدي أن أسممهم ببعض الأغطية الملوثة التي سأهديها إليهم، وسأتخذ الاحتياطات اللازمة حتى لا أصاب بالمرض». ولم يخف اللورد فرحه بالفكرة، لكنه نصح له في رسالة جديدة بأن يستخدم الأغطية المسممة وكل وسيلة ممكنة لاستئصال هذا الجنس اللعين.

وببطانيتين وبضعة مناديل تم تلويثها في مستشفى الجدري انتشر الوباء بين أربعة شعوب هندية هي الأوتاوا Otawas والمينغو Mingos والمايامي Miamis والليني لوناپيه Lenni Lenâpés وأتى على أكثر من مئة ألف طفل وشيخ وامرأة وشاب منهم[٢٣].

ولطالما وُصفت وثيقة إمهرست بأنها «حجر رشيد» الحرب الجرثومية التي كانت من أفتك أسلحة الغزاة لتفريغ القارة الأميركية من أهلها وتحقيق فكرة أميركا: «فكرة استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة». لكن الوثيقة لم تكن إلا البداية في الكشف عن أن هذا «العامل الطبيعي» لم يكن إلا مكيدة بالحياة. لقدكشفت عن المركزية العنصرية لفكرة أميركا وأسطورة «الاختيار» وما ترتب عليها من سياسات مشحونة بالعنف المميت والتعصب المقدس والرسوبات البدائية المتعجرفة – أسطورة أربعة قرون لم تتوقف فيها الجريمة الطقسية يوماً عن التضحية بالآخر.

هناك وثيقة أخرى تتحدث عن إهداء أغطية مسمومة بجراثيم الجدري لهنود المندان Mandan في فورت كلارك. وقد نقلت هذه الأغطية إلى ضحاياها في ٢٠ حزيران/يونيو ١٨٣٧ من محجر

عسكري لمرضى الجدري في سان لويس على متن قارب بخاري اسمه «القديس بطرس St. Peter» فحصدت كذلك في أقل من سنة واحدة أكثر من مئة ألف[٢٤] طفل وشيخ وامرأة وشاب.

بعد حوالى ١٥ سنة كانت كل الولايات المتحدة تتساءل عن أفضل وسيلة للقضاء على هنود كاليفورنيا. فمع الاستيلاء على هذه الولاية الواسعة الغنية من المكسيك وجدت فكرة أميركا نفسها أمام مهمة جديدة وصفتها إحدى صحف سان فرانسيسكو كما يلي: «إن الهنود هنا جاهزون للذبح، وللقتل بالبنادق، أو... بالجدري... وهذا ما يتم الآن فعلاً»[٢٥]. في تلك الفترة كان تسميم الهنود بجراثيم الجدري خطة منظمة تمارسها الدولة وبعض الشركات التجارية المختصة، ويتسلى بها المستوطنون في حفلات تسلية وصفتها مقالة افتتاحية في *San Francisco Bulletin* بأنها «تستخدم الجراثيم من أجل الإبادة المطلقة لهذا الجنس»[٢٦] الهندي اللعين.

* * *

مع استحالة استخدام هذه التقنيات «البدائية» المباشرة في العصر الحديث، ابتكرت الولايات المتحدة أسلوباً جديداً للتغلب على التكاثر الخطير الذي رفع عدد الهنود من ربع مليون في إحصاء سنة ١٩٠٠ إلى ما يقارب المليون في أواخر الستينيات. فما تزال ٣ بالمئة من مساحة الولايات المتحدة بين يدي هؤلاء الهنود، وماتزال هناك ثروات باطنية هائلة لم تحسب الدولة الأميركية حسابها عندما ساقتهم كالقطعان إلى هذه الأراضي القاحلة لتقتلهم جوعاً، وماتزال «ثروة الأمم» بحاجة إلى «نشر الحضارة»، وهي تستخدم كل الأسلحة المتاحة لاغتصاب هذه الثلاثة بالمئة الباقية من أراضي الهنود.

في منتصف سبعينيات القرن العشرين اكتشفت الطبيبة الهندية كوني أوري Connie Uri في سجلات المستشفى الذي تعمل فيه في ولاية أوكلاهوما نسبة مرتفعة جداً من عدد النساء اللواتي أخضِعن لعمليات التعقير، ولدهشتها فقد تبين لها أن الضحايا كلهن من نساء الهنود، وأنهن أخضعن لعمليات التعقير بعد يوم أو يومين من وضعهن. ولاحظت أوري أنه خلال شهر تموز/يوليو ١٩٧٤ بلغ عدد اللواتي تم تعقيرهن في هذا المستشفى وحده ٤٨ ضحية سبقته مئات العمليات التي لا تتم عادة إلا في حالات السرطان[٢٧]. ولتغطية الجريمة عمد المسؤولون إلى ابتزاز الضحايا وفقرهن وحاجتهن إلى العلاج لإجبارهن بأساليب مختلفة على توقيع «موافقة» على أن يصبحن عاقرات. من ذلك مثلا رفض إجراء عمليات الإجهاض أو الولادة إلا بعد الموافقة على استئصال الرحم، أو تهديد الأم بأنها غير مؤهلة لتربية أولادها وأن عليها أن تتخلى عنهم للمؤسسات الرسمية المعنية أو أن توقع على «الموافقة». ومن ذلك اختراع أسباب طبية مختلفة لإخضاعهن لعمليات إضافية بعد الولادة مباشرة دون إعلامهن بأنها عمليات تعقير. وتقول هيلين غرين في «المجلة الأميركية للصحة العامة» إن التحقيق الذي أجرته بين شعب نافاهو أكد أن ٣٠,٧ بالمئة من نسائهم (وكلهن دون الثلاثين) أخضعن لعمليات تعقير[٢٨]. أما الدولة فقد أغمضت عينيها عن هذه التقارير إلى أن أثارها رسمياً السناتور جيمس أبو رزق المعروف بتعاطفه مع قضايا الهنود، ولم تلّوح بعصاها إلا بعد أن تبين لها أن عدداً من نساء البيض يجرين هذه العملية طوعاً. وعندها اكتشفت أميركا الرسمية «لا أخلاقية» التعقير، وسنّ الكونغرس قانوناً يعاقب من يمارسه. فجأة رأت ذاكرة الزنابير صورتها في المرآة كما رأتها بعد ظهور حالات الجمرة الخبيثة، وامتلأ ليلها بكوابيس «الخطيئة الأصلية» لفكرة

أميركا: فكرة استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة. أكثر من أربعة قرون و«نرجس» على ضفة هذا النهر يحدق في الماء.. كأنه لا يعرف أنه أعمى.

هوامش الفصل الثاني

(١) مثل هذه المقارنات بين استعباد السود والهنود تختلف بحسب المكان والزمان وطبيعة الاستعباد. ويمكن مراجعة ذلك بشكل عام عند Robert Fogel and Stanley Engerman في كتابهما عن نظام السخرة لدى الإرساليات *Time on the Cross* و كتاب L.R. Bailey بعنوان *Indian Slavery in Colonial Times Within the Present Limits of the United States.*

(٢) راجع عن خطف الأطفال James J. Rawls في *Indians of California*، ص ٩٦-٩٧، وعن تصريحات الحاكم بورنت والسياسة الرسمية تجاه الهنود Albert L. Hurtado في *Indian Survival on the California Frontier*، ص ١٣٤.

(٣) النسب منشورة في دراسة عن ضحايا الشيروكي أثناء «رحلة الدموع» كتبها Russel Thornton في مجلة *Ethnohistory*، العدد ٣١، سنة ١٩٨٤. أما النسبة الخاصة بالشيروكي ففي كتاب للمؤلف نفسه بعنوان *The Cherokees: A Population History*، ص ٧٥.

(٤) James Mooney في *The Historical Sketch of the Cherokee*، ص ١٢٤.

(٥) بحسب تقديرات Ryan Johanson و S. H. Preston في مجلة *Social Science History*، العدد ٣، سنة ١٩٧٨.

(٦) راجع Karen Ordahl Kupperman في كتابها *Settling With the Indians: The Meeting of English and Indian Cultures in America*، ص ١٧٩. ويؤكد ذلك أيضاً James Truslow Adams في كتابه *The March of Democracy*، المجلد الأول، ص ١٢، وكذلك James Loewen في كتابه *Lies my Teacher Told me*، ص ٩٠.

(٧) Edmund Morgan في كتابه American Slavery-American Freedom: The *Ordeal of Colonial Virginia*. راجع الصفحات ٢٥-٤٣.

(٨) البيان منشور في لندن باسم Edward Waterhouse تحت عنوان *A Delaration of the State of the Colony and Affairs in Virginia.*

(٩) انظر كتاب مورغن *American Slavery-American Freedom*، ص ٩٩.

(١٠) انظر *The History and Present State of Virginia* لروبرت بيڤرلي Robert Beverley، ص ٢٣٢. وقد نشر هذا الكتاب لأول مرة في عام ١٧٠٥، وأعادت طبعه جامعة كارولينا الشمالية، شاپل هيل، عام ١٩٤٧. وانظر في قصة زعيم اليوهاتن أوپشنكانو كتاب James Axtel بعنوان *After Columbus* ففيه فصل كامل عن إمبراطورية پوهاتن.

(١١) Edmund Morgan في كتابه *American Slavery-American Freedom*. راجع الصفحة ٢٣٣.

(١٢) راجع Ziner، ص ١٤١، و.Robert Loeb, Jr في كتابه *Meet the Real Pilgrims* ص ٢٣ و٨٧، وJennings ص ٤٨–٥٢. ومعروف أن نيتشه في كتابه «المسيح الدجال *The Antichrist*» يتحدث عن هذه القذارة بإسهاب. وهناك مقال طريف كتبه Jay Stuller في مجلة سميثسونيان (فبراير/شباط ١٩٩١) بعنوان Cleanless شرح فيه تاريخ هذه الكراهية الأوروبية للصابون والنظافة، وأشار فيه إلى أن الملكة إيزابيلا تفاخرت بأنها لم تغتسل إلا مرتين في حياتها، مرة عند ولادتها، ومرة عند زواجها.

(١٣) The Lord was as it were pleased to say unto us, The Land of Canaan will I give unto thee though but few and strangers in it وكان يردد نبوءة توماس هوكر Thomas Hooker وهما ينطلقان لحرب الپيكو: يجب أن يكونوا خبزنا فنأكل حتى التخمة. راجع Richrd Drinon في *Facing West*، ص ٤٢.

(١٤) *Bulletin*، مجلد ١٠، رقم ٦، ١٩٧٩.

(١٥) Richard Drinon في *Facing West*، ص ٣٣١، وفي ص ٦٥، ونص تشبيه الهنود بالذئاب من رسالة كتبها واشنطن إلى جيمس دواين في ٧ أيلول /سبتمبر ١٧٨٣. وانظر أيضا Francis Paul Prucha الذي جمع معظم وثائق الولايات المتحدة الخاصة بالسياسة الهندية في *Documents of United States Indian Policy*، ص ١ و٢.

(١٦) المصدر السابق ٣٣١. ولا بد هنا من ملاحظة أن التاريخ المنتصر يتفادى

استخدام كلمة مدينة أو شعب أو أمة تماشياً مع سياسة «الأرض الخاوية»، ويفضل عند الاضطرار استخدام كلمة قرية أو قبيلة.

(١٧) المصدر السابق، راجع الفصل الخاص عن جفرسون بعنوان «طرد الهنود إلى جرود جفرسون» من ص ٩٩-١١٦.

(١٨) Erna Gunther في كتابها *Indian Life on the North-West Coast of North America as Seen by the Traders during the Early Explorers and Fur Last Decade of the Eighteen Century*، ص ٧٤.

(١٩) راجع Robert O'Connell في *Of Arms and Men: A History of War, Weapons and Aggression*، ص ١١٧. والكتاب دراسة لعلاقة نظام القيم الأخلاقية والاقتصادية بنوع الأسلحة التي تستخدمها المجتمعات في حروبها، ويعتبر مدخلاً مهما لتفسير الاستخدام الأنكلوسكسوني المفرط للأسلحة الجرثومية بشكل خاص ولأسلحة الدمار الشامل بشكل عام.

(٢٠) حكم وليم برادفورد William Bradford مستعمرة بليموث ثلاثين سنة، ويعتبر كتابه *History of Plymouth Plantation* من أبرز مصادر أسطورة الحجاج ورحلتهم الشهيرة في البحر وعهدهم مع الله وانتمائهم إلى بني إسرائيل... إلخ. واعترافه هذا في ص ٢٧٠.

(٢١) Barry H. Lopez في *Of Wolves and Men*، ص ١٧٠.

(٢٢) Francis Jennings في *The Invasion of America*، ص ٢٠٧-٢٠٨. وقصة أولدام يمكن متابعتها بتفصيل أكبر في كتاب ريتشارد درينون *Facing West*.

(٢٣) راجع Wagner and Allen Stearn في *The Effect of Smallpox on the Destiny of the Amerindian*، ص ٤٤-٤٥ وللمزيد من المعلومات حول سلاح الجدري راجع Ola Elizabeth Winslow في *A Destroying Angel: The Conquest of Smallpox in Colonial Boston.*

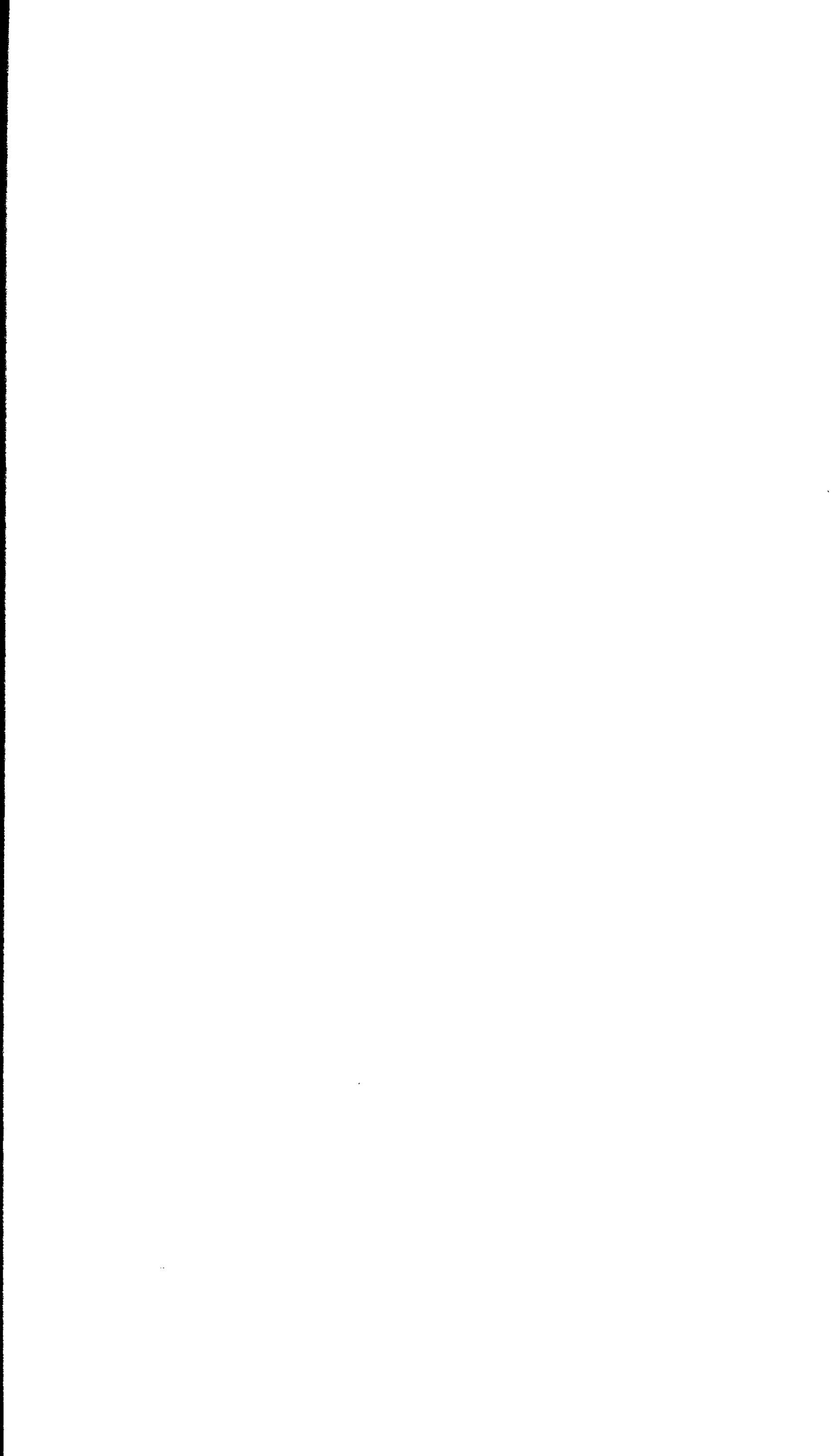
(٢٤) هذه أكثر التقديرات تواضعاً لعدد الضحايا. راجع Evan Connell في *Son of The Morning Star*، ص ١٦.

(٢٥) صحيفة *Daily Alta* بتاريخ ٦ آذار/مارس» ١٨٥٣، كما في كتاب Robert Heizer بعنوان *The Destruction of the Californian Indians*، ص ٢٥١.

(٢٦) المقالة منشورة بتاريخ ١٠ تموز/يوليو ١٨٦٠، وهي كذلك مذكورة في المصدر السابق عن تدمير هنود كاليفورنيا ص ٢٥٣–٢٥٥.

(٢٧) راجع مجلة *Akwesasne Notes*، ربيع ١٩٧٧، مقالة Gayle Jarvis بعنوان The Theft of Life.

(٢٨) انظر مقالة Helen Timkin Greene في *The American Journal of Public Health*، عدد نيسان/أبريل ١٩٨١.



الفصل الثالث

من المتوحش؟

«إنهم يفعلون ما يحلو لهم، يستعبدون كل من ليس من لونهم. يريدون أن يجعلوا منّا عبيداً، وحين لا يتحقق لهم ذلك يقتلوننا. إياك أن تثق بكلماتهم أو وعودهم. إنها أحابيل، صدقني، فأنا أعرف سكاكينهم الطويلة جيداً.»

باشغنتاكيلياس، زعيم هنود دولاوير، ١٧٨٧

في كتابه عن نظريات الاستعمار الإنكليزية، يعتقد كلاوس كنور أن الإنكليز أكثر القوى الاستعمارية الأوروبية ممارسة وتعمداً للإبادة، وأن هدفهم النهائي في العالم الجديد كما في أوستراليا ونيوزيلاندة وكثير من المناطق التي يجتاحونها هو إفراغ الأرض من أهلها وتملّكها ووضع اليد على ثرواتها[١]. خلال هذه المسيرة التي بدأت بإيرلندا ولم تنته بعد، تحكمت عقدة الاختيار الإلهي والتفوق العرقي بسلوكهم وبنادقهم، واستحوذت على أخلاقهم

وعقولهم، ثم استعمرتهم بنظام متكامل من الذهان الهذائي Paranoiac انتهى بهم إلى تأليه الذات God is an Englishman. وهذا ما أوهمهم بأنهم يملكون حق تقرير الحياة والموت لكل من عداهم، وأنهم أيضاً في حِلّ من أي التزام إنساني أو قانوني تجاه الشعوب التي يستعمرونها، لا باعتبار أنها أعراق منحطة وحسب بل لأنها في الغالب مخلوقات متوحشة لا تنتمي للنوع الإنساني.

ولم ينج من هذا التصنيف البيولوجي أقرب الناس إليهم، وجيرانهم في الجزيرة، وشركاؤهم في البياض والنضارة. فلطالما لازمت الإيرلنديين صفةُ التوحش wild Irish وقالوا عنهم إنهم

> «يعبدون الشيطان، وإنهم أجلاف، عراة، أحلاس الغابات والمستنقعات، يعيشون على نوع من الأعشاب، ويأكلون في المناسبات الخاصة من لحم البشر أو من لحم أمهاتهم اللواتي كانت لهن أذناب طويلة وكنّ متوحشّات يأكلن أطفالهن»(٢).

والواقع أن التجربة الإنكليزية مع «المتوحشين» الإيرلنديين تكررت مع كل الشعوب التي اجتاحوها، بدءاً بالهنود والعرب وانتهاء باليابانيين والڤييتناميين. إن قراءة تاريخ الاجتياح الإنكليزي لإيرلندا تساعد على وضع معجم سيمفوني لطبقات «الوحشية» التي واجهها الإنكليز في حملاتهم المختلفة لنشر الحضارة، وتفسر الفروقات الإيقاعية المرهفة التي تفرضها طبيعة «المجاهل» على استخدام هذا السلم الموسيقي العرقي. صحيح أن الإنكليز قضوا على نسبة كبيرة من سكان أيرلندا، ونهبوا كل ثروتها «النفطية» بتعرية غاباتها شجرة شجرة، وتركوا فيها سجلاً حافلاً من المذابح والفظاعات، لكن ذلك لا يخفي براعة الإنكليز في

دوزنة فظاعاتهم ومذابحهم وفقاً لتصنيفاتهم العرقية. وبدون التقليل من هول ما تعرض له الشعب الإيرلندي فإن «ما ارتكبه الأوروبيون بحق الأوروبيين في حروبهم واجتياحاتهم – مقارنة بما ارتكبوه في العالم الجديد – لم يكن أكثر من «شجار عائلي» كما يقول فرانز فانون. ففي أيرلندا نفسها حاول الإنكليز خلال حملتهم الاستعمارية عليها أن يميزوا بين «وحشيتين» مختلفتين لأسباب عرقية: إحداهما متأصلة في الإيرلنديين الغيليين Gael الأقحاح، والثانية مكتسبة أصابت ما يسمى «الإنكليز القدامى Old English» بحكم معايشتهم الطويلة للإيرلنديين المتوحشين. وقد أحكموا ارتكاب فظاعاتهم وفقاً لهذا التصنيف ببراعة لا يجاريهم فيها متحضر.

أما سكان العالم الجديد الذين لم يشاركوا الإنكليز في اللون واللسان والأرض والدين، فقد كان من المستحيل على نظام الهذيان (بعد أن باركته السماء) أن يساوم على تفوقه العرقي أو يلتزم بحد أدنى من الأخلاق أو المشاعر الإنسانية تجاه ضحاياه. منذ البداية كان هناك نوع من السيكولوجيا الاستعلائية التي أعطت مرضاها سيف «الجلاد المقدس». كانت قصص اجتياح كنعان في العهد القديم تمدهم بالأسس الأخلاقية اللازمة لتماسك هذه السيكولوجيا الاستعلائية ولتبرير عنصريتها وعنفها المميت. لم يكونوا واثقين إلا من شيء واحد: أن الله فضلهم واصطفاهم على العالمين وأعطاهم الأرض وحق تقرير الحياة والموت والرزق لكل من يعيش فوق هذه الأرض. هكذا حمل شعب الله سيف «الجلاد المقدس» ولم يساوره الشك في أن الإبادات لم تكن إلا تدبيراً إلهياً مباركاً ورسالة في المجاهل errand into the wilderness عهدها الله إليهم. لقد كان من الشروط الأولية اللازمة للإبادة الجماعية التي

ارتكبها الإسبان والأنكلو-أميركان ضد الهنود، التأكيد على لا إنسانيتهم وعلى أنهم بالوراثة كائنات منحطة. وكان الإسبان أكثر تواضعاً حين قالوا إن الهنود «عبيد بالطبيعة»، ذلك لأنهم لم يكونوا يطمحون إلى أكثر من استعباد الهنود وسرقتهم. أما القديسون الإنكليز فكانوا يتطلعون إلى ما هو أسمى من الاستعباد ويطمحون إلى الاستيلاء على الأرض واستبدال أهلها وثقافتها أو ما يسمونه بنشر الحضارة. لهذا ترجموا كتابات العنصريين الإسبان مثل «غونزالو فرنانديس أوڤيدو يي ڤالديس» و«فرانسيسكو لوپيز دوغامارا»، وعفّوا أو تلكأوا في ترجمة المنصفين مثل «بارتولومه دو لاسكازاس». وتقول عالمة الإنسانيات مرغريت هدجن إن أول كتاب إنكليزي عن الهنود نشر في عام ١٥١١ «وصفهم بالوحوش التي لا تعقل ولا تفكر وتأكل بعضها، بل إنهم كانوا يأكلون أبناءهم وزوجاتهم»(٣). وكان عامة الإنكليز يؤمنون بوجود كائنات نصفها بشر ونصفها وحش. وكالعادة فقد سكنت هذه الكائنات معظم الأعمال الفلسفية الإنكليزية والأوروپية في تلك الفترة وشاعت في الأعمال الأدبية. وكان اليسوعي جوزيف فرانسوا لافيتو Joseph François Lafitau في كتابه عن عادات الهنود الأميركيين قد تحدث عن وجود «كائن هندي بدون رأس، لكن له وجهاً في صدره»! وقد أطلق عليه اسماً أسطوريا Acephal. لهذا لم يكن مستغرباً إيمان عامة الإنكليز في تلك الفترة بأن لكثير من هنود أميركا أظلافاً وأشكالاً شيطانية. وهي أشكال نعثر عليها في كتابات معظم أنبياء الاستعمار الأوائل الذين اختلط عليهم شكل الكنعاني التاريخي الملعون بشكل الوحش الهندي المنحط في صورة أوڤيدية ممسوخة ليس لها وجود إلا في مخيلاتهم. وكان أوليڤر هولمز وهو من أشهر أطباء عصره، قد لاحظ في عام ١٨٥٥ أن إبادة الهنود هو الحل الضروري للحيلولة دون تلوث العرق

الأبيض، وأن اصطيادهم اصطياد الوحوش في الغابات مهمة أخلاقية لازمة لكي يبقى الإنسان فعلاً على صورة الله(٤).

هكذا بدأت دعوات الإبادة الشاملة تعلو عندما لم يكن في كل الشمال الأميركي سوى ألفي إنكليزي. ثم ازدادت هذه الدعوة حدةً وجنوناً حين تأكد الإنكليز أن الهنود قد يرحبون بهم ضيوفاً ويكرمونهم بما يكفيهم من الأرض والرزق ويعيشون معهم بسلام، لكنهم لن يتنازلوا طوعاً عن أراضيهم، ولن يتقبلوا فكرة السخرة والاستعباد. وكانت كل بادرة لمقاومة هذا الجشع والتعصب المقدس برهاناً إضافياً على صدق أسطورة أميركا وعلى صدق الدعوى بأن الهنود متوحشون عدوانيون لا تنفع معهم إلا الإبادة. إن التسامح مع الشرير ليس إلا تشجيعاً للشر، وليست هناك خطيئة أعظم من هذا. ومع تقدم الزمن صارت شيطانية الهندي الأحمر بديهية لا تحتاج إلى دليل مثلما أن إنكليزية الله وتفوق شعبه من البديهيات التي لا تحتاج إلى دليل. لقد سكنت شيطانية الهنود أحلام الملائكة حتى إن ميرسي شورت Mercy Short التي زعمت أن الشيطان تلبّسها وصفته على شكل هندي له أظلاف شيطانية. إن هذا الشيطان الهندي هو الكابوس الذي يقضّ مضجع الزنابير.

* * *

قبل مذبحة «(ووندِدْ ني» Wounded Knee» الشهيرة بأيام كتب فرانك باوم في صحيفته *The Aberdeen Saturday Pioneer*، ولم تكن عبقريته القصصية قد تفتحت بعد، يدعو إلى الإبادة الشاملة لمن تبقى من الهنود:

> «إن أصحاب البشرة الحمراء قد أبيدوا، ولم يبق منهم إلا مجموعة صغيرة من كلاب هجينة تعض اليد التي تطعمها

ولا تتوقف عن النباح. أما البيض فإنهم بحكم الغلبة وبقضاء الحضارة أسياد القارة الأميركية، وإن أفضل أمن لمستوطنات الثغور يجب أن يتحقق بالإبادة الكاملة لهذه البقية الباقية من الهنود.. إن موت هؤلاء الأشقياء خير لهم من الحياة»[٥].

وكانت هذه البارانويا العنصرية هي التعبير الصادق عن مزاج الزنابير في نهاية القرن التاسع عشر. فبعد أيام قليلة ارتكبوا مذبحة «ووندِدْ ني» التي قتل فيها المئات من رجال شعب لاكوتا ونسائهم وأطفالهم بالقصف العنيف. أما الناجون فقد تعقّبوهم وقتلوهم إنساناً إنساناً لا لشيء سوى أن بشرتهم حمراء ودمهم هندي وأرضهم كنعانية طيبة. وكتب شاهد عيان، وهو طبيب أديب نصف هندي يدعى شارل ايستمن (أوهي ييسا Ohiyesa):

«على بعد ثلاثة أميال من مكان المذبحة وجدنا جثة امرأة مدفونة تحت الثلج. وانطلاقاً من تلك النقطة تناثرت الجثث على طول الطريق وكأنها طوردت واصطيدت وذبحت بعزم وتصميم فيما كانت تحاول أن تنجو بأرواحها. بعضُ من معنا اكتشف بعض أهله أو أصدقائه بين القتلى، وكان هناك ندب ونواح يملأ الأرض. وحين وصلنا إلى حيث كان المخيم الهندي وجدنا بين بقايا الخيام والأمتعة المحترقة جثثاً متجمدة تتلاصق هنا في صفوف أو تتراكم هناك فوق بعضها في أكوام... ولم أستطع أن أحتفظ برباطة جأشي بسهولة أمام هذا المشهد الذي أتلف كل أعصابي وأمام ذلك الحزن العميق الذي طغى على كل من معي من الرفاق بين من يجهش في بكائه أو يتلو نشيد موته»[٦].

ويضيف عالم الإنسانيات جيمس موني:

«تحت ركام الثلج، كان هناك نساء على قيد الحياة، لكنهم تركوهن للموت البطيء، وكذلك حال الأطفال الرضع المقمطين والمرميين إلى جانب أمهاتهم... كانت جثث النساء متناثرة فوق محيط القرية. وتحت علم الهدنة كانت هناك امرأة صريعة ومعها طفلها. لم يكن الطفل يعرف أن أمه ميتة، ولهذا فقد كان يرضع من ثديها. وبعد أن قتل معظم من في القرية أعلن الجنود أنهم يضمنون سلامة الجرحى أو كل من بقي على قيد الحياة إذا ظهروا. وخرج بعض الأطفال من مخابئهم، لكن الجنود أحاطوا بهم وذبحوهم. لقد كان واضحاً أن تعمد قتل الأطفال والنساء هو لجعل مستقبل الهنود مستحيلاً»(٧).

في اليوم الرابع للمذبحة كتب باوم مزهواً بنشوة الانتصار:

«لقد فعلنا حسناً. ويجب علينا أن نتابع المسيرة لحماية حضارتنا... إن علينا أن نقطع دابر هذه المخلوقات الوحشية ونمحو ذكرهم من على وجه الأرض»(٨).

* * *

كل شهادات المستعمرين الأوائل كانت تسخر من مفهوم الحرب عند الهنود لافتقارها إلى عنصرين أساسيين في الثقافة الحربية الكلاسيكية: القتل، والتوسع في الأرض. ولأنها أشبه بمهرجانات لاستعراض الشجاعة والبطولة والمهارات وليس لاستعراض الجثث. أول ما لاحظه المستعمرون أن

«حروب الهنود كانت للتسلية والرياضة البدنية وليست

لإخضاع الخصم. فقد يتحاربون سبع سنين دون أن يسقط بينهم سبعة قتلى. إنهم يقاتلون في السهول بالقفز والرقص، وعندما يجرح واحد منهم يتوقف الطرفان عن القتال وينكبّ المتحاربون جميعاً على إسعاف الجريح.»[٩].

ولا شك في أن هذه الثقافة الحربية المختلفة التي لا تؤمن بالعنف المنظم كانت مقتلاً من مقاتل الطالبيّين الهنود وحجر زاوية في حرب الإبادة التي تنتمي إلى ثقافة وأخلاق مختلفتين تماما. عندما أعلن كورتيس للهنود أنه جاء إليهم في مهمة سلمية صدقوه ورحبوا بهذا الغازي الدموي وفتحوا لهُ دورهم وقصورهم ومناجم ذهبهم. فمن قواعد الحرب بين الهنود أن إعلان السلام لا يعني شيئاً غير السلام. ومن هذا المنطق اطمأن الهنود إلى أن كورتيس جاء فعلاً في مهمة سلام. إنهم لم يستطيعوا أن يفهموا لماذا يعلن الأوروبي شيئاً ولايتقيد به، ولماذا يقول قولاً ولا يفعله، ولماذا يوقع اتفاقية ثم يخرقها في أقرب فرصة ممكنة. ولعل هذا ما تعبر عنه هذه الكلمة البريئة التي ألقاها أحد هنود لونابه Lenape أمام أحد المستعمرين الإنكليز:

«إننا نريد أن نعيش معكم بسلام كما عشنا مع غيركم من الشعوب. لو أننا فكرنا في أن نحاربكم يوماً فإننا سنعلمكم بذلك سلفاً، وسنبين لكم الأسباب التي نريد أن نحاربكم من أجلها. فإذا أبديتم ما يقنعنا أو يعوضنا عن الأضرار التي سنحاربكم من أجلها فإننا لن نحاربكم. وإذا أردتم أن تحاربونا يوما فنرجو أن تعلمونا بذلك وتبينوا لنا الأسباب، فإذا لم نقنعكم أو نعوضكم عن الأضرار التي ستحاربون من أجلها فلكم الحق في محاربتنا.. وإلا فليس لكم أن تحاربونا»[١٠].

لم يستطع الهندي أن يفهم دوافع الحرب التي يشنها الأوروبي والعنف المميت الذي يمارسه والفظاعات التي تواكب حروبه. لم يستطع أن يفك ألغاز تقديسه للملكية وهوسه باغتصابها من الآخرين. إن نظام قيَمِه لا يُعنى بالتراكم المادي ولا تستهويه «ثروة الأمم» التي ألهبت خيال الإنكليزي وبندقيته، وجعلت الملكية في عيني مارتن لوثر معياراً للتفريق بين الإنسان والحيوان! هلاّ رأى نبي وول ستريت بأي ماء تسيج الضباع أطيانها؟ الحرب الهندية على ندرتها لا تعلن إلا بسبب إهانة شخصية أو حوادث فردية. ولطالما أمكن تفاديها بالتعويض أو الاعتذار أو الدية. أبداً لم يزعم الهنود باحتكار الحقيقة المطلقة؛ هذا الوباء المقدس الذي ألهب طقس العنف في أتباع كل الديانات التوحيدية. أبداً لم يعرف تاريخ الهنود سماء مركنتلية تتاجر بالعبيد وتعد هذا بأرض ذاك. أبداً لم يكن الغزو أو الاجتياح أو الاحتلال من أخلاقهم. «كل هذا غريب عن ثقافتهم»[١١].

في دراسة ميدانية لهنود السهول الذين صورتهم هوليوود وكل روايات التاريخ المنتصر مثلاً أعلى للعنف والعدوان يقول الأنثروبولوجي جورج غرينل:

> «بين هنود السهول الذين أعرفهم جيداً يعتبر لمس العدو من أشنع أنواع التعبير عن العدوانية. أن تقوم بضرب العدو دون أن تؤذيه عمل من أعمال الفروسية. إن من مظاهر الشجاعة وتقاليدها أن يمضي الرجل إلى الحرب وليس في يده سلاح يؤذي عدوه من بعيد، فحمل الرمح أكثر شجاعة وفروسية من حمل السهام، وحمل البلطة القصيرة أولى من حمل الرمح. أما أعظم مظاهر الشجاعة فأن تسعى إلى الهيجا بدون سلاح»[١٢].

ويروي ستانلي دايموند في دراسته المقارنة عن «البدائية والحضارة» أن قتل الإنسان عند الهنود كان حدثاً تاريخياً، وأن حروبهم كانت تشبه الأعمال المسرحية. ومهما كانت طبيعة هذا الحدث التاريخي الذي يستوجب قتل الإنسان فإنه كان يخضع لطقس مشخصن شديد التعقيد. لقد كانوا يقدسون حياة النساء والأطفال ويعتبرون الاعتداء عليها وصمة عار في جبين المحارب. وهذا ما جعل حرب الإبادة الإنكليزية نزهة في رياض الطبيعة الهندية المسالمة[١٣].

خلال عودة القديسين من حملة إبادة هنود الناراغنستس في عام ١٦٣٧ بقيادة الكابتن جون انديكوت كانوا في أوج النشوة فأرادوا التحرش بهنود الپيكو والتسلي بقتلهم. ويروي شاهد عيان أن الپيكو

> «عندما رأونا على شواطئهم، أسرعوا للترحيب بنا، وهم يهتفون: أهلاً بالإنكليز، أهلاً بالإنكليز [وكانوا يسمون الإنكليز أوانُكس Owanux]. لم يكن يخطر ببالهم ما نعدّه لهم. وعمّ الترحيب والتهليل ومظاهر الفرح بوجودنا في كل مكان حتى وصلنا إلى نهر پكويت Pequeat. وهناك، مع سقوط أول قتلاهم، أدرك الهنود باستغراب شديد سبب وجودنا فهجروا قراهم وفروا إلى الغابات القريبة. ونزل الإحباط بالجنود فراحوا يحرقون القرى والحقول ويتلفون المحاصيل»[١٤].

وما أن عاد الجنود إلى مستعمرتهم حتى ظهر الهنود من مخابئهم ونظموا أنفسهم وهاجموا حصن سيبروك Saybrook فاقتحموه، ولكن دون أن يقتلوا أو يجرحوا أحداً. وظنوا أن هذه «البطولة

الاستعراضية» كافية لاسترداد كرامتهم، ولإقناع المستعمرين بالتعايش السلمي. وبكل ما أعطاهم الله من براءة سأل هنود البيكو قائدَ الحصن ليون غاردينر عن إمكانية هذا التعايش السلمي، فأجابهم: «لقد دمرتم بعدوانكم هذا كل إمكانية للسلام بيننا». وسأله الهنود أيضاً ما إذا كان الإنكليز سيقتلون الأطفال والنساء، فأجابهم «ستعرفون ذلك في حينه». بعد أيام قليلة قاد الكابتن جون مايسون قبيل الفجر جيشاً من الميليشيا قسمه إلى فرقتين تولى قيادة إحداها بينما تولى جون أندرهيل الفرقة الثانية. وقبل أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود هاجموا الهنود النائمين من جبهتين. وكان ذلك بتعبير جون مايسون «آخر نوم لهم». ويصف مايسون تلك الليلة بقوله:

> «لقد أنزل الرب في قلوب الهنود رعباً شديداً، فحاولوا أن يطيروا بين أسلحتنا ويقفزوا في اللهب الذي التهم كثيراً منهم. كان الرب يضحك من أعدائه وأعداء شعبه المختار.. يضحك حتى الاستهزاء والاحتقار، ويجعل منهم وقوداً لهذا الفرن الذي تحولت إليه قريتهم. هكذا ينتقم الله منهم ويملأ الأرض بجثثهم...ليعطينا أرضهم»(١٥).

كان الجنود يقتلون الجرحى من الرجال والنساء والأطفال ويشعلون النار في البيوت ويحرقون الهنود في أكواخهم أحياء أو موتى، وكأنهم في حفلة شوي، «باربكيو»، بتعبير كوتون ماذر(١٦) أحد أقدس أنبياء الاستعمار الإنكليزي للعالم الجديد.

استمرت حفلات «الباربكيو» طويلاً قبل أن يتعلم الهنود أن البراءة مع شعب الله الإنكليزي انتحار، وأن الدفاع عن أنفسهم يحتاج إلى معرفة طبيعة الحرب لدى أعدائهم وإلى عدم قياس نظام قيم وأخلاق

الإنكليز إلى نظام قيمهم وأخلاقهم. فالإنكليزي لا يحب التمثيل المسرحي في ساحة القتال، وإذا أراد أن يرقص فإنه ينتظر حتى ينقشع غبار المعركة ليرقص على أشلاء خصمه. لقد مضى وقت طويل قبل أن يتعلم الهنود، كما يقول جننغز في «اجتياح أميركا»

> «إن وعد الإنكليزي مهما كان صادقاً مضموناً سوف يُخلفه بمجرد أن يتعارض مع مصلحته التي لا تعرف حدوداً، وإن أسلوب الحرب الإنكليزية لا يعرف معنى للرحمة أو للشرف أو للمواثيق أو للتردد... ولقد حفظ الهنود ذلك الدرس غيباً، ولكن حين لا تنفع الدروس والعبر»[١٧].

* * *

تعرضت الثقافة الهندية المسالمة لحملة تشويه لازمت حرب الإبادة وكانت سلاحاً من أسلحتها. لم يكتف التاريخ المنتصر بأن أطلق على غزواته واجتياحاته وحملاته العسكرية اسم «حروب الهنود» بل إنه أسقط كل عنفه وفظاعاته الدموية على الهنود بدءاً بسلخ فروة الرأس وانتهاء بالتمثيل بالجثث. إن مقتل مئة هندي أو حرق قرية هندية كاملة بمن فيها قد تحوله هوليوود إلى مناسبة للضحك والتسلية، فيما هي تنسج من تلويح الهندي بيده في وجه الرجل الأبيض دراما مخيفة تجعلها عنواناً للعنف والوحشية التي تؤهله للموت. وصورة الضحية على الغالب فتاة جميلة شقراء مذعورة، نصف عارية تكشف عن بياضها. وهي لا تختلف عن تلك التي يخطفها كنغ كونغ، وإن كانت هوليوود تضفي على كنغ كونغ بعض المشاعر الإنسانية التي تضنّ بها على الهندي. إنهم قبل أن يسلبوا الهنود جهودهم في الحضارة الإنسانية ويعرّوهم من إنسانيتهم أسقطوا عليهم أشنع فظاعاتهم كالعنف وسلخ فروة الرأس والتمثيل

بالجثث وغير ذلك مما يعتبر لازماً لاعتبار إبادة ١١٢ مليون إنسان من «الأضرار الهامشية» التي تواكب انتشار الحضارة.

«ارتكب الإنكليز جريمة سلخ فروة الرأس في معظم حروبهم»[١٨]. وعلى نقيض ما تروج له هوليوود والرسميون والإعلاميون وأكاديميو التاريخ المنتصر «فإن الرجل الأبيض هو الذي خلق عادة السلخ [في العالم الجديد] وإن أكثر جرائمها من صنع يديه»[١٩]. وكانت عادة سلخ فروة الرأس متبعة أيام الحروب الإنكليزية الإيرلندية، ففي أواخر القرن السادس عشر لجأ القائد الإنكليزي همفري جلبرت إلى قطع الرؤوس وسلخ فروتها لإثارة الذعر في نفوس الإيرلنديين وقمعِ انتفاضتهم (١٥٦٧–١٥٧٠) في فظاعات أقلها زرع جانبي الطريق إلى مقر زعيم الانتفاضة بالرؤوس المقطوعة[٢٠]. وقبل أن يتوجه إلى العالم الجديد، يحاول مُلكاً، خلع عليه البلاط لقب «فارس» اعترافاً ببلائه في نشر الحضارة. ومع أنه عاد خائباً ولم يفلح في تأسيس مستعمرته فإن مسيرته ظلت تتابع نشاطها وتمضي على خطاه إلى يومنا هذا، حتى إن الجنرال آلفرِد سولي أعاد هذا المشهد بكل تفاصيله بعد حوالى ثلاثة قرون عندما أمرَ بنصب الرؤوس المقطوعة لهنود اللاكوتا على عيدان ضخمة، كل رأس على عود، وزرَعَها على جانبي الطريق المؤدية إلى مقره العام[٢١] للاستئناس وفرض الهيبة.

ولقطف الرؤوس وظائف أخرى غير الزينة أو فرض الهيبة كما كان الحال في أيرلندا والمستعمرات الأميركية الأولى. لقد استخدم في البداية – بدلاً عن آلات الحساب الخرزية – للتأكد من عدد القتلى، ثم سرعان ما اكتشفَت أخلاق السوق فيها وسيلةً للرزق فاعتمدتها وطورتها وجعلت منها صناعة مستقلة. ويقول جننغز في «اجتياح

أميركا» إن السلطات الاستعمارية رصدت مكافأة لمن يقتل هندياً ويأتي برأسه، ثم اكتفت بسلخ فروة الرأس إلا في بعض المناسبات التي تريد فيها التأكد من هوية الضحية[٢٢]. ولعل أقدم مكافأة إنكليزية على «فروة الرأس» بدلاً من كامل الجمجمة تعود إلى عام ١٦٩٤. في ١٢ أيلول/ سبتمبر من ذلك العام رصدت المحكمة العامة في مستعمرة مساشوستس مكافآت مختلفة لكل من يأتي بفروة رأس هندي مهما كان عمره أو جنسه. وتختلف هذه المكافآت بحسب مقام الصياد: خمسون جنيهاً للمستوطن العادي، وعشرون جنيهاً لرجل الميليشيا، وعشرة جنيهات للجندي. ولم تمض عشرون سنة حتى رصدت كل المستعمرات الإنكليزية جوائز مماثلة. ثم تغيرت «التعرفة» في عام ١٧٠٤ فأصبحت مئة جنيه لكل فروة رأس. ومن المفارقات أن المكافأة المتواضعة التي رصدت لفروة رأس الفرنسي في عام ١٦٩٦، وهي ستة جنيهات فقط، لم تتغير في التعرفة الجديدة، بل ظلت في أسفل القائمة، وظل الفرنسي الأبيض - برغم عداوته الدموية للإنكليزي - آخر المطلوبين.

كانت مكافأة المئة جنيه تعادل أربعة أضعاف متوسط الدخل السنوي للمزارع في مستعمرات نيو إنكلند. وكان بإمكان أي مستوطن عجوز أن يصطاد طفلين وثلاث نساء هنديات سنوياً ويتنعم بما لم يتنعم به جلالة الملك جيمس. هذا ما جعل صيد الرؤوس الهندية وسلخها أسرع طريقة لبناء الثروة، وسرعان ما وجدت «ثروة الأمم» المعادلة الاقتصادية المناسبة لاستثمار بونانزا الأرواح تجارياً. لقد اكتشف شعب الله نفطه في عروق الهنود.

في فالموث، أو ما يعرف اليوم ببورتلاند أسس توماس سميث إحدى هذه الشركات التي تستأجر فرقة من المغامرين لقتل الهنود

والعودة برؤوسهم أو فرواتها. كان سميث يزود الفرقة بالمعدات والذخائر ويتقاضى ثلث المكافأة. وتقول إحدى صفحات يومياته إن حصته من مكافآت ذلك اليوم الكاسد (١٨ حزيران/يونيو ١٧٥٧) بلغت ١٦٥ جنيهاً[٢٣] كان الصيادون يتعهدون قرى معينة، يمشطونها قرية قرية ولا يبقون فيها فروة واحدة. حتى إن القرى المكسيكية وراء الحدود صارت هدفاً للصيادين. ولأن فروة رأس الهندي «الحليف» لا تختلف عن فروة الهندي العدو، ولأن صيدها أسهل، ولأن أخلاق السوق لا تعنيها هذه التفاصيل التافهة فقد ركزت هذه التجارة جهودها على صيد رؤوس الحلفاء، ولا سيما منهم أولئك الذين تطهرت أرواحهم واستعاروا لأنفسهم أسماء القديسين. ويروي أكستل في بحثه عن «السلخ» أن فرقة من أربعة رجال من مستوطني نيوجرسي زعموا أنهم يصطادون هنود فيلادلفيا، لكنه في ليلة ١٢ نيسان/أبريل ١٧٥٦ تبين أن كل ضحاياهم كانوا من هنود المنطقة الذين أنقذ القديسون أرواحهم واستخدموهم في أعمال السخرة. في منتصف تلك الليلة اقتحم المستوطنون بيت عائلة هندية آمنت فأمنت ونامت قريرة العين. أما الرجل «جورج» فتمكن من الهرب، لكن الزوجة «كاثرين» تلقت بضع طلقات في صدرها ثم قطع رأسها بالفأس. الطفلة ذات الأحد عشر ربيعاً تهشم رأسها بالبلطة وتلقت عدة طعنات في كتفها. وأما رأس الطفل الذي لم يبلغ السنة فما كان على الله الإنكليزي بعسير[٢٤].

ويروي بيتر شمالز في كتابه عن هنود أوجيبوا كيف أن الأخوّة في الإيمان لم تكن أفضل من التحالف، وكيف أن الذين طلبوا خلاص أرواحهم في الآخرة وطمعوا في خلاص أجسادهم في الدنيا صاروا فريسة سهلة للقديسين. ففي إحدى قرى دولاوير حاصرت

كتيبة مسلحة بقيادة داڤيد وليامس أفراداً من الهنود المورافيين. وتمضي الشهادة فتقول إن الجنود طمأنوهم إلى أنهم جاءوا لمرافقتهم إلى حيث يصلّون ويجدون طعامهم بأمان. وقالوا لهم إن هذه المهمة النبيلة لا تحتاج إلى حمل السلاح. ووافق الهنود مطمئنين إلى أخوة الإيمان. ثم إنهم أسرعوا إلى إحضار من تبقى من أهلهم وذويهم في البيوت حتى لا تفوتهم بركات الصلاة. ولم يكن لدى الهنود وقت ليكتشفوا الخدعة إذ عاجلهم الجنود بالقتل وحصدوا في تلك المذبحة رؤوس ٢٩ رجلاً و٢٧ امرأة و٣٤ طفلاً[٢٥].

ثم ازدهرت هذه التجارة مع الحرب الإنكليزية – الفرنسية في العالم الجديد، ومع تزاحم الطرفين على شراء «الحلفاء» وتنافسهما على دفع مكافآت مرتفعة لقاء فروات رؤوس أعدائهم. وفيما كانت الشركات التجارية الإنكليزية والفرنسية توجه نشاطها الأكبر لصيد رؤوس الهنود «الحلفاء» قبل الأعداء، كانت الوعود السياسية والاقتصادية التي أمطرها البيض على الهنود قد أوقعت بعضهم في الفخ. لم يتصور الهنود الذين أغرتهم الأطماع والوعود وقصر النظر فتعاونوا مع المستعمرين على قتل إخوانهم أنهم سيموتون بالطريقة نفسها عندما يدرك المستعمرون غايتهم منهم. لقد أغروهم بارتكاب هذه الفظاعات التي كانوا فيها أكبر الخاسرين. فخلال حرب السنوات الست (١٧٥٤–١٧٦٠) كان الإنكليز والفرنسيون هم الذين يديرون هذا المسلخ الذي لم يذبح فيه إلا الخراف.

واضطر الإنكليز إلى رفع قيمة مكافأة السلخ في السنة الثالثة للحرب بعد أن ألحق الفرنسيون هزيمة ساحقة بالجنرال الإنكليزي إدوارد برادوك وبحلفائه من الهنود. هكذا استغنى كثير من

المستوطنين عن البحث عن الذهب ليلتحقوا بمناجم السلخ، وصاروا يتنافسون فيما بينهم ويتباهون بسرعة الصيد وكثرة الغنائم. ويروي المغامر لويس وتزل Lewis Wetzel أن غنيمته من فروات رؤوس الهنود كانت لا تقل عن أربعين فروة في الطلعة الواحدة. ويعتبر «وتزل»، وهو ابن مستوطنَيْن مغامرَيْن، من أبطال التاريخ الأميركي وما يعرف بعمالقة الثغور. جُرح صغيراً عندما كان أبواه يحاولان الاستيلاء على أراضٍ هندية بالقوة. في الرابعة عشرة دشّن أول ضحاياه ونذر نفسه لقتلِ الهنود. لهذا لم يتزوج ولم يضيّع لحظة من حياته في عمل آخر. من بطولاته قتلُ زعيمين هنديين فيما كانا يجريان مفاوضات السلام مع المستعمرين، الأول زعيم الدولاوير (عام ١٨٧١)، والثاني زعيم السينيكا (عام ١٨٧٩)[٢٦].

بدءًا بـ «وتزل»، صار قطع رأس الهندي وسلخ فروة رأسه من الرياضات الإنكليزية المحببة في أميركا، بل كان الكثير منهم يتباهى بأن ملابس صيده وأحذيته مصنوعة من جلود الهنود. ثم تغير الحال بعد عقد من الزمان عندما بدأ الإنكليز الملكيون والإنكليز الثوار يسلخون رؤوس بعضهم في العالم الجديد فيما يدّعي كل منهم وصلاً بالعناية الإلهية وينسب إليها جرائمه وفظائعه. وبالطبع فقد تنازع الطرفان على صفة الاختيار والتفضيل وتمثيل «شعب الله»، لكنهم جميعاً ظلوا مخلصين لتقليد السلخ والتمثيل بالجثث طوال فترة ما يسمى بحرب الاستقلال. كانوا يُنظمون لذلك حفلات خاصة ويدعون إليها علية القوم للتفرج والاستمتاع الشهواني بهذه المشاهد المثيرة، حتى إن الكولونيل جورج روجرز كلارك في حفلة أقامها لسلخ ١٦ من الأسرى الأحياء أثناء حصاره الاحتفالي لڤانسين Vincennes طلب من الجزارين أن يتمهلوا في الأداء، وأن يعطوا كل تفصيل تشريحي

حقه لتستمع الحامية كلها بالمشاهد. وقد وصف الكولونيل هنري هاملتون في يومياته بهجة الحضور بأنهم خرجوا يختالون بنشوة انتصارهم ورائحة دم الضحايا تعبق منهم[٢٧]. ومايزال كلارك إلى الآن رمزاً وطنياً أميركياً وبطلاً تاريخياً، و«ما يزال من ملهمي القوات الخاصة في الجيش الأميركي»[٢٨].

وفي كولورادو تولت الشركات الخاصة، بتعاقد ضمني مع الدولة، مهمة الذبح والسلخ والقضاء على الوجود الهندي. أما في كاليفورنيا فقد تأخرت حفلات السلخ قليلاً لكنها سرعان ما اتبعت خطوات الولايات الأخرى، ففي حادثة واحدة (أيار/مايو ١٨٥٢) اشترك فيها «شريف» ويفرقيل هوجم ١٤٨ هندياً من الرعاة فأصبحوا أثراً بعد عين. ثم أصبح قطع الرؤوس خبراً عادياً في الصحافة البيضاء التي لم تعد تجد حرجاً في الحديث عن أن هدف هذه المجازر هو «الإبادة» وأن القتلة الذين ارتكبوا هذه البطولات تلقوا مكافآت من الحكومة بعد أن أبرزوا فروات رؤوس ضحاياهم[٢٩].

مع تأسيس الجيش الأميركي أصبح السلخ والتمثيل بالجثث تقليداً مؤسساتياً رسمياً. فعند استعراض الجنود أمام وليم هاريسون (الرئيس الأميركي لاحقاً) بعد انتصار ١٨١١ على الهنود، تم التمثيل ببعض الضحايا، ثم جاء دور الزعيم تيكومسه Tecumseh. وهنا تزاحم صيادو التذكارات على انتهاب ما يستطيعون من جلد هذا الزعيم التاريخي أو فروة رأسه. ويروي جون سغدن John Sugden في كتابه عن تيكومسه كيف شرط الجنود المنتشون جلد الزعيم من ظهره إلى فخذه، وكيف أن أحدهم قصّ قطعة من الجلد شرائط رفيعة لربط موسى الحلاقة، وكيف تناهش الآخرون فروة رأسه حتى إن بعضهم لم يحصل على قطعة أكبر من السِنت (قطعة نقد معدنية لا

يتجاوز قطرها السنتمتر) مزينة بخصلة من شعر تيكومسه. وعندما أُجريَت مقابلة مع أحد هؤلاء المحظوظين في عام ١٨٨٦ (أي بعد ٧٥ سنة) تحدث عن تلك المناسبة التاريخية بافتخار وهو يحمل بين إصبعيه تذكاره البطولي[٣٠]. وكان الرئيس أندرو جاكسون الذي تزين صورته ورقة العشرين دولاراً من عشاق التمثيل بالجثث، وكان يأمر بحساب عدد قتلاه بإحصاء أنوفهم المجدوعة أو آذانهم المصلومة، وقد رعى بنفسه حفلة تمثيل بجثث ٨٠٠ هندي يتقدمهم زعيمهم مسكوجي (رد ستيكس). ففي ٢٧ آذار/مارس ١٨١٤، كما يروي داڤيد ستانارد، احتفل الرئيس جاكسون بانتصاره على هنود الكريك وتولى جنوده التمثيل بجثث الضحايا من الأطفال والنساء والرجال، فقطعوا أنوفهم لإحصاء عددهم وسلخوا جلودهم لدبغها واستخدامها في صناعة أعنّة مجدولة للخيول[٣١].

بعد مذبحة ساند كريك التي ذهب ضحيتها أكثر من ٨٠٠ هندي أعزل اضطر الكونغرس إلى إجراء تحقيق في الفظاعات التي ارتكبها الجنود وقائدهم جون شِڤنغتون John Chivington. ويعتبر شِفنغتون اليوم من أعظم أبطال التاريخ الأميركي، وهناك الآن أكثر من مدينة وموقع تاريخي تخليداً لذكره ولشعاره الشهير:

> «اقتلوا [الهنود] واسلخوا جلودهم. لا تتركوا صغيراً ولا كبيراً، فالقمل لا يفقس إلا من بيوض القمل».

ولعل هذه هي العبارة التي ألهمت هِملر تشبيه ما جرى في معسكرات الإبادة النازية بأنه «تنظيف قمل». وكانت الحكومة قد أعلمت الكولونيل شِڤنغتون بأن القرية مسالمة، وأن معظم رجالها خرجوا لصيد الجواميس، لكن الكولونيل قال: «حسناً. إنني متشوق للخوض في الدم»[٣٢]. وقد تحقق له ما يصبو إليه. فمع

أول خيوط فجر ٢٩ تشرين الثاني/نوڤمبر ١٨٦٤ زحف رجاله إلى القرية. وكان فيها رجلان من البيض حاولا إعلام الجنود بأن القرية مسالمة، لكنهما جوبها بإطلاق النار. ثم إن الزعيم بلاك كتل الذي لم يصدق أن البيض سيخرقون اتفاقيات السلام رفع العلم الأبيض فوق سارية أحد البيوت كما رفع علماً أميركياً كان قد تلقاه من مفوض الشؤون الهندية، وراح الزعيم المخدوع بالاتفاقيات والوعود يطمئن أهل القرية ويهدئ روعهم قائلاً: «لا تخافوا.. لا تخافوا، نحن في سلام مع البيض»!

وفيما كان الجنود يطلقون النار على أهل القرية المتراكضين في كل الاتجاهات أعطى شِڤنغتون أوامره بالقصف المدفعي، ومطاردة الهاربين. ويقول روبرت بنت Robert Bent أحد مساعدي شِڤنغتون في شهادته أمام الكونغرس:

«بعد القصف، حاول رجال القرية أن يجمعوا الأطفال والنساء ويحيطوا بهم لحمايتهم. ولقد شاهدت خمس نساء مختبئات تحت مقعد طويل. وعندما وصل الجنود إليهن بدأن يتوسلن ويطلبن الرحمة لكن الجنود قتلوهن جميعاً. وكان هناك أيضاً ثلاثون أو أربعون امرأة متكومات فوق بعضهن في حفرة، وقد أرسلن إلينا طفلة في السادسة تحمل راية بيضاء مربوطة على عصا، لكنها لم تتقدم بضع خطوات حتى أطلقنا عليها النار وقتلناها، كما قتلنا النساء اللواتي لم يبدين أية مقاومة. ثم إنني رأيتهن بعد ذلك مسلوخات الرأس، بينما كانت إحداهن مبقورة البطن وجنينها في بطنها واضح للعين. وأخبرني الكابتن شاول أنه رأى ما رأيت، ورأى مثلي عدداً كبيراً من الأطفال بين أيدي أمهاتهم المذبوحات»[٣٣].

ويقول شاهد آخر هو الجندي آشبري بيرد Ashbury Bird إن

«عدد الضحايا يراوح بين ٤٠٠ و٥٠٠، وإنهم جميعاً تعرضوا لسلخ فروات رؤوسهم. لقد رأيت امرأة تَعَرّض فرجُها للتمثيل به، كما شاهدت جثثا مقطعة تقطيعاً فظيعاً وعدداً من الجماجم المحطمة. وإنني لعلى ثقة بأنها تحطمت بعد موت أصحابها بإطلاق النار عليهم كما هو واضح، [وهذا ما يشهد عليه أيضاً السيرجنت لوسيان پالمر Lucien Palmer]. إنني لم أر قتيلاً واحداً لم يُسلخ رأسُه أو رأسُها. لقد رأيت كذلك أصابع مقطوعة للسطو على الخواتم. كما رأيت عدداً من الجثث وقد قطعت أعضاؤها التناسلية»[٣٤].

وتقول شهادة عاموس ميلكش Amos C. Milksch:

«رأيت طفلاً حياً بين الجثث المرمية في الخندق. ورأيت جندياً من الفرقة الثالثة يستل مسدسه ويطلق النار على رأس الطفل. رأيت ضحايا مقطعة الأصابع للسطو على خواتمها، ومقطعة الآذان للسطو على زينتها، ورأيت عدداً من الجنود ينبشون جثثاً تم دفنها ليلاً، وذلك ليسلخوها وليأخذوا زينتها. ورأيت امرأة هندية مهشمة الرأس. وفي الصباح التالي، بعد أن تيبست الجثث، بدأ الجنود بسحب جثث النساء و"فتحهن" بطريقة مشينة»[٣٥].

وشهد داڤيد لودرباك David Laouderback أحد الفرسان أن

«جثث النساء والأطفال تم التمثيل بها بطريقة مخيفة. لقد رأيت ثماني منها فقط، ولم أجد في نفسي الشجاعة لرؤية المزيد فقد كانت شديدة التقطيع، وكانت مسلوخة

الرؤوس. أما الزعيم وايت أنْتِلوپ (الظبي الأبيض) فإنه كان مقطوع الأنف والأذنين والأعضاء التناسلية»[٣٦].

ويقول المترجم جون سميث John Smith:
«لقد مارسوا كل أنواع السلب والنهب؛ سلخوهم، واقتلعوا أدمغتهم. واستخدم الجنود سكاكينهم لتمزيق أجساد النساء وشقهن، ولتعذيب الأطفال ودق رؤوسهم بأعقاب البنادق واقتلاع أدمغتهم والتمثيل بأجسادهم. إن أسوأ تمثيل رأيته في حياتي هو تقطيع النساء إلى قطع صغيرة وتمزيق جثث الرّضّع الصِغار ذوي الشهرين أو ثلاثة أشهر. وعندما ذهبت إلى مكان المذبحة في اليوم التالي لم أر جسداً واحداً إلا وقد سُلخ وقطعت أعضاؤه التناسلية»[٣٧].

ويقول الليوتننت جيمس كانون James D. Cannon:
«سمعت جندياً يقول إنه اقتطع فرج امرأة وعلقه على عود لعرضه. وسمعت آخر يقول إنه قطع أصابع هندية ليأخذ خواتمها. كما سمعت جنوداً قالوا إنهم اقتطعوا فروج الهنديات وشدوها على مقدمات سروج خيولهم أو عرضوها [كالنياشين] على قبعاتهم أثناء الاستعراض العسكري. وسمعت جندياً يقول إنه شق قلب امرأة هندية ورفعه على عود»[٣٨].

بعد انتهاء «المهمة» عقد الكولونيل شِفنغتون مؤتمراً صحافياً أعلن فيه أنه خاض مع رجاله «إحدى أكثر المعارك دموية مع الهنود، حيث تم تدمير أعتى قرى هنود الشايين!» فيما عمّت النشوة بين الزنابير في طول البلاد وعرضها وخرجت مسيرات الفرح والتأييد

في الشوارع حتى أن افتتاحية إحدى الصحف شبهت فروات الرؤوس المقطوعة والمتناثرة هنا وهناك بالضفادع التي اجتاحت مصر قبل خروج بني إسرائيل منها، وأضافت «ليس هناك أحد لم يتمتع بقطعة من فراء رؤوس هنود الشايين، وهناك من بلغت به النشوة أن أرسلها إلى [أصدقائه في] الشرق»[٣٩]. وبالطبع أنهت لجنة تحقيق الكونغرس تحقيقاتها باستهجان المجزرة وعدم معاقبة أحد. أما الرئيس تيودور روزڤلت فإنه تسامى بهذه البطولات فوصفها بقوله «إن مذبحة ساند كريك كانت عملاً أخلاقياً ومفيداً [ذلك لأن] إبادة الأعراق المنحطة حتمية ضرورية لا مفر منها»[٤٠].

وفي عام المذبحة اكتشف أحد صيادي الأرواح إمكانية استخدام الأعضاء الذكرية أكياساً للتبغ. ثم تطورت الفكرة المثيرة من هواية فردية للصيادين إلى صناعة رائجة بعد أن صار «كيس التبغ» هذا، مِثل الشاربَيْن، من أبرز علامات الرجولة والفروسية والأرستقراطية الاستعمارية، وصار الناس يتهادونه في أعيادهم وأفراحهم[٤١]. لكن هذه الصناعة لم تعمّر طويلاً في داخل أميركا بعد أن انخفض عدد الهنود في عام ١٩٠٠ إلى ربع مليون، وضاق وجه الأرض الأميركية بالسلخ وقطع الرؤوس ولم يعد أمام الحضارة إلا أن تبحث وراء المحيط عن مجاهل جديدة ووحوش طازجة في باناما والفيليپين واليابان وهايتي وكوريا وڤييتنام وبلاد العرب.

* * *

في أربعينيات القرن العشرين دخلت اليابان أطلس المجاهل وانضم اليابانيون إلى قائمة الشعوب المتوحشة. وسرعان ما صنفت دائرة الأنثروبولوجيا في مؤسسة سميثسونيان الثقافية اليابانيين مع

الأعراق المنحطة. ففي رسالة وزعتْها على المسؤولين الأميركيين أكدت فيها «أن جمجمة الياباني متخلفة عن جمجمتنا (الأنكلوسكسونية) أكثر من ألفي سنة»، بينما قال العسكريون «إن اليابانيين ليس فيهم طيارون مؤهلون قادرون على التصويب في اتجاه الهدف لأن عيونهم مشوهة منحرفة». وكانت حملة «التوحيش»، كالعادة، رخصة للتحلل من أي التزام أخلاقي أو إنساني أو قانوني تجاه الضحايا. ويروي مراسل حربي أميركي في مقالة له في Atlantic Monthly:

> «لقد قتلنا الأسرى بدم بارد، ومحونا المستشفيات من الوجود، وأغرقنا مراكب الإنقاذ، وقتلنا المدنيين وعذبناهم، وأجهزنا على الجرحى، وجرفناهم إلى حفر جماعية. وهناك في الهادي سلقنا لحم جماجم أعدائنا لنصنع منها عاديات تذكارية توضع على الطاولات وتهدى إلى الأحباب، أو صنعنا من عظامهم سكاكين لفتح الرسائل»[٤٢].

وكانت أعظم غنائم المحاربين هي هذه التذكارات التي يجمعها الجنود من جثث الضحايا أو المحتضرين كما يروي جون دوور في كتابه عن ظاهرة العنصرية في حروب الهادي «حرب بلا رحمة». من ذلك الأسنانُ الذهبية، الآذان، العظام، فروات الرؤوس، والجماجم وغير ذلك من تذكارات فيتيشية[٤٣] طالما اعتبرها علماء الاجتماع العرقي دليلاً على العقلية البدائية التي تعبد الجماد وتتعلق به مرضياً وجنسياً. وقد لاقت هذه «الدكاكير» ترحيبا كبيراً لدى الشعب الأميركي حتى إن مجلة لايف نشرت في عام ١٩٤٤ موضوعاً عن الحرب مزيناً بصفحة كاملة لصورة صبية شقراء يفتر ثغرها عن بسمة السعادة والفخار وهي تقف إلى جانب

جمجمة يابانية أرسلها إليها خطيبها من الجبهة. ويبدو أن عبادة الدكاكير طقس قديم يعود على الأقل إلى عام ١٨١٤ عندما أشرف الرئيس جاكسون بنفسه على سلخ ٨٠٠ من هنود الكريك، واقترح أن ترسل قطع من تلك الجثث هدايا إلى السيدات الأرستقراطيات في تِنِسي[٤٤].

بعد أقل من عقدين مضيا على نشر صورة «الحسناء والجمجمة» في مجلة لايف وصف الجنرال وستمورلند William Westmorland الشعب الڤييتنامي بالنمل الأبيض[٤٥] termite. والنملة البيضاء أخطر حشرة يخشى الأميركي أذاها على بيته، ولذا فهي مرتبطة في ذهنه بحتمية وشرعية وأخلاقية مكافحتها بمبيدات الحشرات. في هذا السياق التاريخي الطويل من إبادة الحشرات على مدى أكثر من أربعة قرون، يستخدم الجنرال هنا سلاح الإبادة دون أي رغبة في أن يعرف شكل ضحاياه أو عددهم. ولقد سهّل القصف الجوي وإطلاق الصواريخ عن بُعد والقتل الإلكتروني هذه المهمة حتى جعلها أشبه بلعب التسلية. إن الفلاح الڤييتنامي تحول إلى نملة بيضاء، مثلما تحول الهندي إلى دودة، والفيليپيني إلى حشرة، والعربي العراقي إلى صرصار. هكذا لم يجد الجنود حرجاً في الاحتفاظ ببعض أعضاء هؤلاء الڤييتناميين الحشرات تذكاراً كما فعل آباؤهم في الحرب العالمية الثانية.

ليس غريباً إذن أن لا يجدوا فَرقاً بين مجاهل العالم الجديد ومجاهل ڤييتنام وأن يطلقوا على هذه الجبهة الجديدة اسم «البلاد الهندية». وكان هيو مانكه Hugh Manke رئيس قسم المتطوعين الدوليين، في شهادة له أمام الكونغرس، عام ١٩٧١، قد أكد على عزم القوات الأميركية على إبادة ڤييتناميي الجبال واحداً بعد الآخر، وقال «إننا

سنحل مشكلتهم كما فعلنا مع الهنود». بل إن الجنرال مكسويل تايلور Maxwell Taylor وصف الڤييتكونغ في شهادته أمام الكونغرس بأنهم «هنود» وأنهم لذلك «ليسوا بأفضل من قمل يغزو جلد الكلاب». أما السفارة الأميركية في سايغون فوصفتهم على لسان ضابط علاقاتها العامة جون مكلين John Mecklin بأن عقولهم تعمل كما تعمل السيقان الرخوة للطفل المشلول، وأن محاكماتهم العقلية لا تضاهي طفلاً أميركياً في السادسة من عمره[٤٦]. وكانت قناة History التلفزيونية قد عرضت (١٣ تموز ١٩٩٦) شكلاً حديثاً متطوراً من مشاهد السلخ في فيلم وثائقي بعنوان قيام العنقاء Rising Phoenix نرى فيه الجنود الأميركيين في ڤييتنام وهم «يقطفون» رؤوس ما يُشتبَه بأنهم من كوادر الڤييتكونغ، ويعرضونها في مهمة أشرفت عليها وكالة الاستخبارات المركزية في أواخر ١٩٦٧ وأطلقت عليها عملية العنقاء Operation Phoenix.

وتتضارب الأرقام النهائية لعدد ضحايا العنقاء بين شهادة وأخرى. فبينما يعترف وليم كولبي، وكان يومها يدير عمليات السي آي إيه في الڤييتنام، بأن حصيلة قتلاها بين المدنيين في نهاية ١٩٧١ بلغت ٢٠٥٨٧ و ٢٨٩٧٨ معتقلاً (تبين لاحقاً أنهم أبيدوا) و١٧٧١٧ تولت أمرهم حكومة سايغون، يقول تقرير لجنة تشيرش Church (لعام ١٩٧٦) إن عدد قتلى عملية العنقاء من المدنيين بين ١٩٦٨ و١٩٧٠ زاد على العشرين ألفاً. أما وزارة الدفاع فتعترف بأن عدد قتلى تلك العملية من المدنيين في ڤييتنام الجنوبية كان ٢٦٣٦٩ بينما بلغ عدد المعتقلين ٣٣٣٥٨. ويتحدث روي پروسترمن Roy Prosterman أستاذ القانون في جامعة واشنطن عن نشاطات جانبية لعملية العنقاء خاصة بإصلاح الأراضي في ڤييتنام والفيليپين والسلڤادور فيقول إن عدد ضحايا ڤييتنام وحدها من هذه العملية ما

بين ١٩٦٨ ومنتصف ١٩٧١ زاد على الأربعين ألفاً. ومهما كانت حقيقة الأرقام فإن برنامج العملية يقتضي تصفية كل من يشتبه بأنه من الڤييتكونغ أو يتعاطف معهم بمعدل ١٨٠٠ ڤييتنامي شهرياً على أقل تقدير[٤٧]. وكان المدنيون المشتبه بتعاطفهم مع الڤييتكونغ أكبر الضحايا فقد كانوا يُعتقلون بالآلاف ويُقتلون تحت التعذيب. ويروي بارتون أوسبورن أحد ضباط العملية في شهادة له أمام لجنة الكونغرس للشؤون العسكرية لعام ١٩٧٣ صورة مما كان يجري أثناء التحقيق فيقول:

> «كنت أنظر في قضية مشتبه يقول أحد عملائي إنه متعاطف مع الڤييتكونغ. وكان التحقيق يجري في مجمّع التجسس المضاد لفرق المارينز. وحين دخلت لمتابعة ما يجري كان الرجل قد فارق الحياة بعد أن دكّوا في فتحة أذنه سيخًا حديدياً طوله ست بوصات اخترق دماغه وقتله.. لقد كانت حرب إبادة منظمة».

وتصف مجلة *Counterspy* في عدد ربيع/صيف ١٩٧٥ عملية العنقاء بأنها: «أكبر برنامج للقتل الجماعي المنظم شهده العالم منذ معسكرات الموت النازية».

في ١٦ آذار/مارس ١٩٦٨ دخلت مجموعة من الكتيبة ١١ قرية «ماي لاي» فقتلت ٣٤٧ عجوزاً وامرأة وطفلاً رضيعاً، ثم إن المشاة أحرقوا البيوت والأكواخ بمن فيها من البشر. وهنأ الجنرال وستمورلند هذه المجموعة لعملها الممتاز outstanding action، وتبادل الرسميون الأنخاب ابتهاجاً في المركز الرئيسي ساعة الكوكتيل. وفي يوم المجزرة نفسه هاجمت مجموعة أخرى من هذه الكتيبة قرية «ماي خه ٤»، وفتحت نيرانها على طريقة أفلام

الكاوبوي. في هذه المجزرة تولت مجموعة صغيرة من الجنود تكويم الجثث التي قالوا إنها لا تزيد على المئة: «لقد بسطنا الأرض في تلك القرية بالديناميت والنار، ثم ألقينا حفنة من القش فوق أكوام الجثث». وفي اليوم التالي زحفت هذه المجموعة عبر شبه جزيرة باتنغن Batangan، جنوب بحر الصين، وراحت تحرق كل قرية تعبرها، وتقتل كل ما يدب فيه الروح من الجواميس والخنازير والبط والدجاج والبشر، وتدمر المحاصيل. وقد قال أحد أبطال هذه «الأضرار الهامشية» : «ما فعلناه هنا ليس استثناء. لقد فعلناه في كل مكان». وقال آخر: «لقد كنا نتسلى»[٤٨].

بعد أن كشف سيمور هيرش Seymour Hirsh عن تفاصيل هذه البطولات (من خلال تقرير الكونغرس المؤلف من ٤٠ مجلداً) تشجعت الصحافة على فتح هذا الملف الدموي الذي أدى في النهاية إلى اتهام وسائل الإعلام بأنها وراء خسارة حرب ڤييتنام، كما أدى لاحقاً إلى تبني استراتيجية إعلامية جديدة لحروب المستقبل يتفرد فيها البنتاغون على مستوى العالم بتوزيع ما يشاء من المعلومات التي تحاول تجنب أي ذكر للضحايا والتركيز على براعة التكنولوجيا الحربية في إصابة الأهداف. وفعلاً فإن الكشف المستمر عن تفاصيل هذا الملف الدامي كان وراء تنامي القوى المعارِضة للحرب التي تبين لها كما يقول بروس شاپيرو أن مذابح المدنيين وتعمد قصف المستشفيات وسيارات الإسعاف وحرق القرى بمن فيها ومختلف جرائم الحرب كانت عملا روتينياً مستمراً.

في كتابه عن مذبحة «ماي لاي»، يروي سيمور هيرش (والكلام عن هذه المذبحة كله هنا مقتبس من كتابيه *Cover Up* و *My Lai 4* الحائز على جائزة بولتيزار) أن الطيار هيو تومسون

Hugh Thompson كان يحلق بطائرة الهيلوكبتر الصغيرة صباح ١٦ آذار/مارس ١٩٦٨ فوق منطقة ماي لاي. وما أن اقترب من قرية سونغ ماي حتى رأى الأرض مزروعة بالقتلى والجرحى من دون أي إشارة تدل على وجود قوة معادية، [المنطقة تقع داخل ڤيتنام الجنوبية «الحليفة» التي «تستضيف» الجيش الأميركي والضحايا كلهم من مواطنيها]. وظن الطيار أن أفضل ما يستطيع فعله هو تحديد المكان بالدخان حتى يسرع الجنود على الأرض للنجدة والمساعدة. وكان أول ما فعل أن حدد مكان فتاة مصابة بطلقات في بطنها ومبطوحة على حافة السياج فيما كان نصفها السفلي فوق حقل الرز. ولدهشته فإن الجنود أسرعوا إلى الفتاة ليجهزوا عليها لا ليسعفوها، فقد أفرغوا في رأسها عدة طلقات. وتكررت القصة مرتين أجهز فيها الجنود على طفلين دون العاشرة قبل أن يصحو تومسون من كابوسه. ويقول مساعده لاري كولبرون Lari Colburn، وكان يومها في الثامنة عشرة من عمره، إن الجنود كانوا يقتلون كل ما تدبّ فيه الحياة.

ويقول أحد جنود الأرض إنه شاهد سيدة عجوزاً في سريرها تفارق الحياة، وكان هنالك راهب بجانبها يصلي لها. وقد أمره الضابط المسؤول أن يسأل الراهب العجوز عن الڤييتكونغ. ولما أنكر الراهب أي علاقة له بهم جره الضابط المسؤول وليم كالي Lieutenant William Calley إلى الخارج وبطحه فوق حقل الرز. كان الراهب يتوسل إليه أن يُبقي على حياته عندما أطلق كالي عليه النار. ثم إن كالي أصدر أمره برمي كل من تبقى من أهل القرية الأحياء في الخندق وإطلاق النار عليهم. وروى شاهد عيان أن كالي كان يجر بيديه النساء والأطفال إلى الخندق ويطلق عليهم النار قبل أن يستجيب الجنود لأمره ويساعدوه [على «نشر

الحضارة وطريقة حياتها»]. وقال شاهد آخر: لقد دفعنا كل من وجدناه أمامنا من أهل القرية في الخندق وأطلقنا عليهم النار. وشاهدنا كيف حاولت الأمهات إنقاذ أطفالهن عبثاً وكيف كان الأطفال يتلببون بأمهاتهم ويبكون. كان تومسون يحلق فوق المنطقة ويرى الجثث المترامية فوق الأرض وفي عدد من الخنادق المحفورة. وعندما رأى مجموعة من النساء والأطفال محاصرين في مكمن عسكري قرب خندق محفور لتصريف المياه والأقذار هبط بطائرته لمساعدتهم، لكن كالي وجنوده أسرعوا إليه. وكان مما قاله كالي لتومسون: إن أفضل طريقة لمساعدة هؤلاء الأشقياء هي أن تلقي قنبلةً عليهم. ولما همّ تومسون بإنقاذ بعضهم عاجلهم كالي وجنوده بإطلاق النار. ويقول أحد مساعدي تومسون:

«إن الجثث كانت كالنمل، كأن هناك من سمم مياه الشرب، وكأن كل من في القرية شرب من هذه المياه المسمومة وسقط صريعاً. لقد استغرق دفن القتلى أكثر من خمسة أيام».

وكان جوزيف ستريك قد أجرى لقاءات مطولة مع «أبطال» ماي لاي، ونشرها في كتاب نال الجائزة الأكاديمية للتوثيق لعام ١٩٧١. وكان مما جاء على لسان فردانو سمبسون Verdano Simson:

«كانوا يمثلون بالجثث وبكل شيء. كانوا يشنقونها أو يسلخونها. وكانوا يستمتعون بذلك. يستمتعون بذلك بكل معنى الكلمة. وكانوا يتلذذون بقطع حناجرهم».

وقال شاهد آخر هو جيمس برغثولد: كانوا يقطعون آذان الضحايا وأشياء أخرى مثل هذا هنا (مشيراً إلى ما بين فخذيه)». أما غارفولو Gray Garfolo فربط قصة المذبحة بجذورها حين قال: «إنه السلخ، كما تعلم.. السلخ، مثل حال الهنود. بعض الناس هناك كانوا في

رحلة هندية». وأضاف روبرت كروش أن رئيسه قال له: « لا أريد أسرى. أريد إحصاء للجثث». «لقد كنا نعتبر كل من هو فوق الثانية عشرة مشروع جثة». وفي مكان آخر قال أحد المحاربين

«كنا هناك نطهر المكان مستخدمين الشعار المعروف "الهندي الصالح هو الهندي الميت". ولقد كان جنود المارينز هناك يعتقدون أنهم جاءوا لكي "يخوزقوا" المتوحشين fucking savages»[٤٩].

ويروي ريتشارد بويل Richard Boyle في كتابه «زهرة التنين *Flower of the Dragon*» – والكلام هنا من كتابَيْ هيرش – أن مجزرة «ماي لاي» لم تكن جريمة شخص واحد، ولا جريمة فرقة واحدة. إنها مذبحة واحدة من مذابح كثيرة منظمة ومدبّرة بدقة من قبل قيادات سياسية وعسكرية رفيعة المستوى، وذلك بهدف إرهاب القرويين والحيلولة دون تعاونهم مع الڤييتكونغ. ويستشهد بما قاله وليم كورسون William Corson أحد المسؤولين عن هذه المجزرة: «لقد اتفقنا مع حكومة ڤيتنام الجنوبية على أن ندمر تدميراً حرفياً وفعلياً كل أمل أو طموح لدى أكثر من ٣٠ ألف إنسان. إنها لم تكن مجزرة. لقد كانت حرب إبادة genocide».

«إن جيل أبي – والكلام لبويل – يستغرب اليوم كيف أن جيلي لم يعد يحترم تلك التقاليد والبطولات التي جعلت أميركا أمة عظيمة. إنهم لم يقولوا لنا إن إبادة الشعوب كانت عصب هذه التقاليد والبطولات وإن الجنود الأميركيين سلخوا مئات فروات الرؤوس في مذبحة ساند كريك، ورفعوا تلك الفروات في دار الأوبرا في لايك سيتي ابتهاجاً. لم يقولوا لنا إن المئات من الهنود ذبحوا في «ووندِدْ ني» وإن الجنرال جاكوب سميث Jacob Smith أمر

بذبح ٨٢٩٤ طفلاً، و٢٧١٤ امرأة، و٤٢٠ رجلاً في جزيرة سامار Samar أيام الاحتلال الأميركي للفيليبين».

وكانت «النيويورك تايمز» في أواخر نيسان/ أبريل ٢٠٠١ قد كشفت عن مجزرة لم يكن أحد ليذكرها لولا أن بطلها أصبح عضواً في مجلس الشيوخ. وقد ارتكبها السناتور بوب كيري في شباط/فبراير ١٩٦٩ عندما كان ضابطاً بحرياً متطوعاً في حرب ڤييتنام ونال جزاء بطولتها وسام النجم البرونزي. ويروي غيرهارد كلان أحد الذين شاركوا في هذه المجزرة كيف أن السناتور بوب كيري الذي كان يُعدّه الحزب الديموقراطي لخوض انتخابات الرئاسة المقبلة قادهم في تلك الليلة إلى قرية ثونه فونغ حيث جمعوا ١٣ امرأة وطفلاً وأطلقوا عليهم النار بدم بارد، وكيف أنهم بعد سقوط القتلى سمعوا طفلاً يبكي بين الضحايا فعاجلوه بالرصاص الكثيف. وقال إنهم بينما كانوا في طريقهم إلى مكان المجزرة مروا بكوخ فيه عجوزان وثلاثة أطفال فطعنوهم جميعاً بالسكاكين ثم قطعوا حناجرهم.

في ١٨ نيسان/أبريل ١٩٧١ أجرى كروسبي مويس مراسل «واشنطن إيڤننغ ستار» لقاء مع السناتور جون كيري زميل بوب كيري في القتال وفي مجلس الشيوخ، سأله فيه:

> كروسبي مويس – لقد ذكرت في أكثر من مناسبة أن سياساتنا في ڤييتنام لا تختلف عن حرب الإبادة tantamount to genocide، وأن المسؤولية تقع على كافة مستويات قياداتنا. هل قمت أنت شخصياً – كضابط بحرية شارك في حرب ڤييتنام – بارتكاب فظاعات أو جرائم يعاقب عليها قانون هذا البلد؟

> جون كيري – لقد كان هناك كل ما يخطر على بالك من هذه الفظاعات والجرائم، وأحب أن أعترف بأنني نعم، نعم، ارتكبت مثل هذه الفظاعات والجرائم مثل الآلاف من الجنود... لقد شاركت في مهمات قتل، وتدمير، وإحراق قرى. وهذا كله انتهاك لقوانين الحرب واتفاقيات جنيف، وكل ذلك تم بناء على أوامر مكتوبة وفقاً لسياسة حكومة الولايات المتحدة من قمة الهرم حتى القاعدة.. وإنني أعتقد أن الرجال الذين رسموا هذه السياسة، الرجال الذين صمموا منطقة النار الحرة، الرجال الذين أعطونا الأوامر، الرجال الذين وقعوا على أوامر القصف الجوي، أعتقد أن هؤلاء الرجال... مجرمو حرب.

في الساعات الأخيرة من وجودهم في ڤيتنام، وبعد أن ألقوا عليها ١٤ مليون طن من القنابل، انصبّ كل جهد الدولة الأميركية على إنقاذ الزنابير «البيض». لم يتخلوا عن حلفائهم الڤيتناميين وحسب بل تخلوا حتى عن جنودهم الملونين وعن كل ما ليس بأبيض من المئات من موظفيهم المتجمعين في Hotel Duc والآلاف من عملائهم المحتشدين أمام السفارة. وكان الأمر الصادر من الدولة الأميركية حاسماً وواضحاً: «أنقذوا السادة أصحاب البشرة البيضاء Save the gentlemen in the white skin». وقبل أن تقلع الهيلوكپتر بالقنصل هنري بودرو Henry Boudreau من سطح السفارة، أطل من عليائه وتفحص الحشود في مبرك السيارات وقال بكثير من الارتياح: «لم أر أي وجه أبيض هناك»[٥٠].

* * *

منذ ترومن حتى بوش، حاول كل رؤساء أميركا الحديثة التوسع

في غرب «الغرب الأميركي» وحيثما شاء «القدر المتجلي». لقد حاولوا التصدي للشيوعية والتوسع الصيني وبسط سيطرتهم على منابع النفط العربية. وهم في كل خطوة من هذا التوسع «لم يتخلوا قيد أنملة عن السياق التاريخي العنصري والدموي» كما يوضح دانيال إلسبرغ[٥١]. لقد تحكمت عقدة الاختيار والتفوق بسلوكهم وبنادقهم فأوهمتهم بأنهم يملكون حق تقرير الحياة والموت لكل من عداهم، وأنهم في حِلّ من أي التزام إنساني أو قانوني تجاه الشعوب التي يستعمرونها، لا باعتبار أنها أعراق منحطة وحسب بل لأنها في الغالب مخلوقات متوحشة لا تنتمي للنوع الإنساني. إن ميتافيزياء كراهية الهنود [لدى الزنابير] – كما يقول هرمن مِلفيل صاحب «الحوت» – استحكمت بطقس «التضحية بالآخر». وهذا ما جعل أميركا تعيش بضحاياها، ولا يمكن فهم حروبها وعلاقاتها الدولية إلا بالبحث عن ينابيع طقوسها الخاصة بالتضحية بالآخر.

عندما تحرش القديسون بهنود البيكو في ٥ حزيران (!)/ يونيو عام ١٦٣٧ وشووا أجسادهم بالنار قالوا إنهم كانوا يتسلون، وأن ما جرى كان أشبه بحفلة شوي «باربكيو». وبعد مذبحة مايپول Maypole ذلك العام سكر الحاكم برادفورد وسكر معه القديسون حتى الثمالة، ورقصوا وغنوا أياماً بلياليها، وعاشروا نساء الهنود آخر معاشرة في حياتهن. ومع منتصف القرن السابع عشر

> «صار صيد الهندي من أمتع رياضات التسلية في نيوإنغلاند، فما أن يتم القبض على هذا الوحش حتى يتم تمزيق جسده أو إطعامه للكلاب. هكذا كان يتم صيد آلاف الهنود سنوياً في ألعاب تسلية كانت تعتبر من الرياضات الشعبية في نيو إنغلاند»[٥٢].

في تلك الفترة التجريبية للتسلي بصيد الأرواح يروي شاهد عيان يدعى جون إيستون قصة اصطياد هندي عجوز لم يعد قادراً على المشي فيقول:

«لقد تسلى الجنود بتعذيب هذا العاجز لأكثر من ساعة، ثم قرروا أن يقتلوه. بعضهم ارتأى إطعامه للكلاب.. غير أن الرحماء منهم انتصروا في النهاية واكتفوا بقطع رأسه»[٥٣].

وفي عام ١٩٦٨ عندما اقتحمت قوة أميركية شبه جزيرة باتنغن Batangan وراحت تحرق القرى وتقتل فلول الفييتناميين الفارين من أذاها قال أحد القتلة: «لقد أمضينا وقتاً سعيداً هناك وتسلينا». وفي فبراير ١٩٩١ كانت الطائرات تطلق النار على طوابير العراقيين المنسحبين إلى البصرة. وفي خبر من على متن USS Ranger قال أحد الطيارين: «لقد كنا نزجي الوقت في صيد طيور التركي». وقال آخر: «لقد تسلينا. كان قتلهم أشبه بصيد السمك من البراميل». ذلك هو طقس التضحية بالآخر الذي رافق نشوء أميركا وتاريخها لحظة لحظة، وتلك هي ضحاياها كما يقول الزعيم سياتِل في عام ١٨٥٤: قبيلة تمضي على أعقاب قبيلة، وأمة تلحق بأمة، كأنهم موج البحر.

في ربيع ١٩٩١ أرسل لي صديق من «الحركة الهندية» دعوة لحضور نقل رفات «العصفورة الضائعة» من لوس أنجلس إلى مسقط رأسها في داكوتا الجنوبية بمناسبة الذكرى المئوية الأولى لمذبحة «وونِدْ ني». وأرفق الدعوة بصورة فتاة هندية طويلة الضفائر ترفل بثياب هندية مشنشلة مهدّبة الحواشي، وتزين عنقها وصدرها بحلي هندية تقليدية. صورة شاحبة اللون تعود إلى أول القرن، تقف فيها الفتاة وقفة استعراضية تذكرك بعشيقات شارلي

شابلن في أفلامه الصامتة. وعلى الصورة ستة أسطر قصيرة تقول: «ضيعت أهلها في معركة مأساوية. وضيعت ثقافة أهلها في ذلك المجتمع المتعصب. وضيعت دربها وهي تكافح من أجل العيش». كانت الفتاة في عامها الأول حين ساقها القدر إلى مرابع هنود لاكوتا في «ووندِدْ ني كريك» يوم المذبحة الشهيرة (٢٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٩٠). وهناك قُتلت أمها مع مئات الأمهات والأطفال، لكنها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة استطاعت أن تجرجر جسدها فوق الثلج وتتوارى بطفلتها عن الأنظار عند ضفة الجدول القريب. بعد أربعة أيام، اكتشف شاهد المذبحة شارل إيستمن (أوهي ييسا) الطبيب الأديب نصف الهندي تلك الفتاة تحت جثة أمها تحاول الرضاعة من ثديها المتجلد. ثم تهافت الزنابير على تبنيها والاحتفاظ بها كمعجزة تذكارية من تلك المذبحة التاريخية إلى أن انتهت في بيت الجنرال ليونارد كولبي وزوجته كلارا. وبالطبع لم يكن هناك من يعرف اسمها فقد قُتل اسمُها ودفن مع أمها تحت ثرى وثلج «ووندِدْ ني». ولهذا أطلق عليها اسم «زينتكا لانوني» ويعني بلغة هنود لاكوتا «العصفورة الضائعة». هكذا فتحت زينتكا عيونها لتعيش حياة مغمسة بالعنصرية في مجتمع «غريب» لم يرحمها. وباستثناء كلارا التي عطفت عليها وأحبتها فقد لسعها كل من حولها من الزنابير، وفي مقدمهم الجنرال الذي تخلى عن زوجته ليعاشر مربية البيت. وهذا ما اضطرها إلى الهرب ثلاث مرات، مضت في إحداها إلى مقبرة «ووندِدْ ني» الجماعية ورمت بنفسها فوق تربتها. ولما بلغت «العصفورةُ الضائعة» السابعة عشرة أرسِلت لتعيش مع الجنرال وزوجته الجديدة في نبراسكا، فعبث بها. ثم إنها لما حملت رماها في إصلاحية للإحداث ظلت فيها سنة بعد أن وضعت جنيناً ميتاً. وفي تلك السنة تزوجت زينتكا لتكتشف أن زوجها مصاب بالزهري الذي لم يكن

الطب يعرف له شفاء فعانت منه ومن الفقر ومن لسع الزنابير إلى أن ماتت في التاسعة والعشرين. في تموز/يوليو ١٩٩١ نقل رفات «العصفورة الضائعة» من لوس أنجلس ليدفن بالقرب من القبر الجماعي لضحايا «ووندِدْ ني».

في كتاب «ناشِد الرؤى *Seeker of Visions*» يقول لايم دير Lame Deer (الغزال الكسيح) حكيم هنود سو:

> «رأيت صوراً من مذابح "سونغ ماي" و"ماي لاي" [في ڤييتنام]؛ رأيت صور الأمهات الذبيحات وأطفالهن يرضعون من أثدائهن، وتذكرت جدي غود فوكس (الثعلب الطيب) يخبرني عن الأم الذبيحة فوق ثلج "ووندِدْ ني" وطفلتها التي ترضع من ثديها البارد. إنها صورة واحدة. لم يتغير شيء سوى المكان. كل ما هنالك أن ثدي "ماي لاي" كان حاراً، أما ثدي "ووندِدْ ني" فكان بارداً متجمداً. هذا هو الفرق الوحيد» بين صورة الأمس وصورة اليوم.

هذه الصورة، صورة الجرائم الطقسية التي رافقت رحلة الزنابير من مستعمرة بليموث إلى «ماي لاي»، ومن قرى البيكو إلى قرى أفغانستان هي العقد الذي ينتظم كل تاريخ أميركا، وهي تفسيرها وعلتها وسبب وجودها raison d'être. بدون هذه الجرائم الطقسية تفقد فكرة أميركا معناها (فكرة استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة) فوجودها من وجود هذه الجرائم الطقسية وعدمها من عدمها. إن تكرار هذه الصورة في كل بقعة غزاها الزنابير ليست مصادفات عبثية. وإن تسمية كثير من الأسلحة والطلعات الجوية بأسماء هندية مثل «توماهوك» و«كريزي هورس» و«رولينغ ثندر» و«هيكوري» ليست إلا تأكيداً على ميتافيزياء كراهية الهنود

(الكنعانيين) التي صاغت فكرة أميركا ورافقت نار حروبها على مدى أربعة قرون.

في ستينيات القرن العشرين كانت ولاعات Zippo في جيوب الجنود جاهزة لحرق معظم القرى التي مروا بها. وكان الاسم الدلع لقاذفات اللهب من الدبابات أيضاً Zippo. كذلك كان اسم الدبابات التنينية التي كانت تقذف النابالم الحارق لتطهير الأرض من «النمل الأبيض» الڤييتنامي واسم تلك القنبلة الرشيقة الوثابة Command Vault التي تزن سبعة أطنان ونصف الطن وتمحو كل ما على وجه الأرض في مساحة تقدر بضعف مساحة ملعب كرة القدم. إنها الصورة التكنولوجية المتطورة من «باربكيو» كوتون ماذر ومن صورة قرى الپيكو التي تحولت إلى أفران بشرية. وإنها «الأضرار الهامشية» اللازمة دائماً لتمدين المجاهل ولانتشار الحضارة وطريقة حياتها بين الوحوش. عندما أرسلت الرابطة الأميركية لتقدم العلوم عالم الحيوانات الشهير E. W. Pffeiffer إلى الهند الصينية لدراسة هذه «الأضرار الهامشية» عاد ليروي مشاهداته عن الدمار الجهنمي والتعرية الجماعية لكل ما في ڤييتنام من شجر ونبات ومحاصيل زراعية، وعن عشرات ملايين الحفر البركانية التي أحدثتها هذه القنبلة الوثابة التي تعتبر مثل سكينة المطبخ مقارنة بالقنابل التي ألقيت على العراق أو على يوغسلاڤيا أو أفغانستان (والقادم أعظم). وكانت الواشنطن پوست (٢٨ كانون الأول/ديسمبر ١٩٧١) قد نقلت بعض ملاحظات هذا العالم فقالت:

> «إن قصف الهند الصينية وحراثتها بالقنابل ليس إلا الترجمة الحديثة لسياسة إفناء الجواميس في الغرب الأميركي. إن لهذا البرنامج تأثيراً مدمراً على أنواع الحياة في الهند الصينية أكبر من تأثير الإبادة البيئية في الغرب الأميركي على الهنود الحمر»[٥٤].

شهد الغرب الأميركي شكلاً مماثلاً من هذا التدمير على يد قاتل محترف اسمه كيت كارسون Kit Carson. وكان كارسون قد بدأ حياته صياداً للفراء قبل حوالى قرن من وصول الحضارة إلى مجاهل الهند الصينية، ثم تحول إلى أسطورة شعبية من أساطير التوسع نحو الغرب، وصارت سمعته كما تقول الأسطورة «نظيفة كأسنان كلاب الصيد»، و«براقة مثل سكاكينه الطويلة الحادة» التي تُصنع اليوم باسمه وتخليداً لذكراه. وعلى الرغم من أميّته فإنه تولى منصب مفوض الشؤون الهندية حيث استخدم سكاكينه الطويلة وكل الأسلحة المتوفرة لديه لقتل هنود الناڤاهو وإحراق بيوتهم ومزارعهم وحقولهم ومواشيهم ومحاصيلهم وعنابر ميرتهم في حرب اقتصادية إبادية انتهت باستسلامهم ونزوحهم المعروف بالمسيرة الطويلة من أريزونا إلى نيو مكسيكو. إن سكاكين كارسون الطويلة هي السلف الصالح لقنابل الجنرال وستمورلند وصواريخ الجنرال شوارزكوف وقاذفات الجنرال فرانك. صحيح أنه لم يكن لدى قديسي پليموث ولاعات Zippo ولا دبابات تنينية قاذفة للهب، لكنهم استخدموا كل آلة الدمار المعروفة في عصرهم لتحويل قرى البيكو إلى أفران بشرية. لقد تطورت آلة الموت والحريق. أما «انتشار الحضارة» فما يزال كاليوم الأول على صخرة پليموث «نظيفاً كأسنان كلاب الصيد».

قبل أن يصدر رمزي كلارك Ramsey Clark وزير العدل السابق كتابه عن جرائم أميركا ضد الإنسانية في حربها على العراق(٥٥)، كانت الفرقة الجوية القتالية السابعة والسبعون قد أنتجت ووزعت كتاب أناشيد تصف فيه ما ستفعله الفرقة في «الخليج»، وتنذر هذا «المتوحش القميء».. «خدن الأفاعي» بأن يستعد للإبادة فيما ينتهي أحد هذه الأناشيد بخاتمة تقول: «الله يخلق أما نحن فنحرق

الـجثث Allah create but we cremate». والـكـتـاب كـما يصفه كريستوفر هيتشنس في *The Nation* خليط من السادية والفحش. ومعظمه تشنيع وتشهير وشتائم بذيئة للعرب والمسلمين باعتبار أنهم أعراق منحطة و«حشرات» و«جرذان» و«أفاع»[٥٦]. وهي بذاءات مقتبسة بالتأكيد من كتاب «حياة محمد...» لجورج بوش (الـجد الأكبر ١٧٩٦-١٨٥٩) الـذي يضم أشنع مـا كـتـب عن العرب والمسلمين والنبي محمد في الولايات المتحدة[٥٧]. وقد اعترف نورمن شوارزكوف في عدة مقابلات تلفزيونية بأنه كان يريدها معركة فناء، وأشار إلى أنه كان يخطط لأن تكون على شكل معركة كاناي Cannae القرطاجية[٥٨] التي يطلق الطليان على موقعها اليوم اسم «حقل الدم Campo di Sangue». ومن يدري ما ستكشف عنه وثائق هذه الحرب وما تلاها من حصار حين ترفع السرّية الكاملة عنهما يومًا يتطاير فيه الريش مع رؤوس من تبقّى من هذا «الجنس اللعين»!

هوامش الفصل الثالث

(١) Claus Knorr في *British Colonial Theories, 1570-1850*، ص ٦٨–٨٠.

(٢) راجع Howard Mumford Jones في كتابه *O Strange New World: American Culture - The Formative Years*، ص ١٦٩. ولمعرفة المزيد عن اتهام الإنكليز للايرلنديين وغيرهم بالوحشية راجع مقالة Nicholas P. Canny بعنوان The Ideology of English Colonization: From Irland to America في فصلية *William and Mary*، العدد ٣٠، ١٩٧٣.

(٣) Margaret T. Hodgen في *Early Anthropology in the Sixteenth and the Seventeenth Centuries*، ص ٤٠٩. ولطالما تحكم سفر التكوين بنظرتهم للهنود. فبينما كان وليم برادفورد حاكم مستعمرة مساشوستس يعتبر الهنود «كنعانيين، متوحشين يهيمون على وجوههم، أحقر من وحوش البراري» يقول روجر وليمس مؤسس مستعمرة رود آيلاند إنهم «ربما كانوا مخلوقات ممسوخة من نسل آدم، ولربما أنهم من ذرية حام». وفي عام ١٦٢٣ «اضطر» أحد قديسي مستعمرة پليموث لقتل ثمانية من هنود ويساغوست «الحلفاء» ليتأكد من بشريتهم.. أما ڤيليب ڤنسنت في كتابه *The Relation of the Late Battell Fought in New England* المطبوع في لندن عام ١٦٣٨ فيرى أن «مظهرهم مظهر البشر، وأفعالهم أفعال العقلاء»، لكنه برر قتلهم «من أجل أن يحل السلام»، فقتْل هؤلاء «ضروري» حتى لا يقتلوا رجالنا الإنكليز في المستقبل. لكن، يبقى لقتلهم محظور واحد وهو أن الإنكليز سيحرمون أنفسهم من إمكانية استخدامهم أو استعبادهم. ثم إن وليم پيتي الطبيب من الجمعية الملكية أكد في كتابه *The Scale of Creatures* المنشور عام ١٦٧٧ أن الهنود ليسوا وحوشاً وليسوا بشراً بل مخلوقات وسط بين البشر والوحوش. ويعتبر هذا تطوراً كبيراً عن نظرة جون سميث مؤسس مستعمرة جيمستاون الذي كان يعتبرهم «بهائم غير طبيعية، يظهرون كالهوام والحشرات الطفيلية وأسراب الذباب... مثل الجرذان والفئران وجحافل القمل» راجع في هذا كتاب درينون *Facing West*، ص ٤٩.

(٤) Thomas F. Gossett في *Race: The History of an Idea in America*، ص ٢٤٣. في ذروة الحماسة لعقيدة «القدر المتجلي» عارض كثير من الزنابير سياسة التوسع إلى الفيليپين. وعلى الرغم من عميق إيمانهم بحق أميركا في أن تحكم العالم فإنهم رفضوا ضم «أمة منحطة ذات بشرة داكنة» مثل الفيليپين

خوفاً من التلوث العنصري. وكان الجنرال جاكوب سميث في عام ١٩٠٢ قد قدّم مثالاً على هذا التطهر العرقي حين اجتاح جزيرة سامار Samar الفيليبينية وأباد كل ذكر فيها فوق العاشرة. ويومها، عبّر تشارلز فرانسيس آدامس عن ذلك «التطهر العرقي» بكل صراحة عندما أشار إلى أن «الإبادة الأميركية للهنود الحمر درس يجب الاعتبار به وتذكره في مثل هذه المناسبات، فهذه الإبادة برغم قسوتها أنقذت العرق الأنكلوسكسوني من التلوث». راجع Christopher Lasch في *The World of Nations: Reflection on American History, Politics and Culture*، ص ٧٨. في هذه الكلمات التي قالها الديبلوماسي الأميركي (ابن الرئيس جون كوينسي آدامس) نرى شبحاً مخيفاً للمبررات العرقية للإبادات المقبلة، فبالنسبة لهولاء الذين أعمتهم عقدة الاختيار الإلهي والتفوق العرقي وظنوا أن «طريقتهم في الحياة» التي امتزج فيها بارود التفوق بوحشية النظام الرأسمالي يجب أن تكون بديلة عن الحياة نفسها فإن الإبادات المقبلة لعناصر أو أعراق كاملة من «المنحطين» يعتبر حلاً ناجعاً للخلاص من التلوث العرقي والتهجين». وويل لمن تلده أمه في المجاهل. ولأن المتوحشين هم المسؤولون عن إبادة المتحضرين لهم فقد كتب فرانسيس باركمن Francis Parkman أشهر مؤرخ أميركي في عصره أن الهنود الذين وصفهم بأنهم «بشر وذئاب وشياطين في آن» قدّر عليهم أن يتلاشوا قبل أن تتقدم موجات الحضارة الأنكلوسكسونية... «إن الهندي في الواقع هو المسؤول عن الدمار الذي لحق به لأنه لم يتعلم فن الحضارة، ولا بد له هو وغابته من الزوال. والأمر يستأهل». راجع كتاب باركمن *The Conspiracy of Pontiac and the Indian War After the Conquest of Canada*، مجلد ١، ص *ix* و ٤٨. «والأمر يستأهل *It's worth it*» هي العبارة التي استخدمتها مادلين أولبرايت حين سئلت عن رأيها في مقتل مئات آلاف الأطفال جراء الحصار الهولوكستي الذي تفرضه الولايات المتحدة على أهلنا في العراق.

(٥) *The Aberdeen Saturday Pioneer*، ٢٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٩١.

(٦) Charles A. Eastman (Ohiyesa) في كتابه *From the Deep Woods to Civilization*. ص ١١١–١١٣. وكنت قد ترجمتُ لأوهي يسا كتاباً بعنوان عشيّات الكوخ *Wigwam Eveninigs* ونشرته كاملاً في مجلة الكرمل (خريف ١٩٩٩). ولقد علمت لاحقاً أن أوهي ييسا أعد كتاب «عشيات الكوخ» ضمن جهوده للحفاظ على هندية الأطفال الهنود بعد كل ما شاهده في مذبحة ووندد ني، وبعد مشاركته الشخصية في إنقاذ الطفلة زينتكا لانونا التي كانت ترضع من ثدي أمها الذبيحة، كما سنرى لاحقاً.

(٧) *Fourteenth Annual Report of the U. S. Bureau of Ethnology*، الجزء الثاني، ص ٨٨٥.

(٨) *The Aberdeen Saturday Pioneer*، ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٩١.

(٩) John Underhill فـي *Newes From America* ، ص ٤٠، و Arber and Bradley في *Travels and Works of John Smith*، المجلد الأول، ص cxiv.

(١٠) راجع هذه الشهادة عند Thomas Budd في كتابه *Good Order Established in Pennsylvania and New Jersey in America.* ص ٣٣.

(١١) Ruth Benedict في كتابها *Patterns of Cultures*، ص ٣٢.

(١٢) George B. Grinnell في *American Anthropologist*، العدد ١٢ (١٩١٠).

(١٣) Stanley Diamond فـي *In Search of the Primitive: A Critique of Civilization*، ص ١٥٦.

(١٤) *News From America*، ص ٧.

(١٥) John Mason في *A Brief History of the Pequot War* ص ٩.

(١٦) Richard Slotkin and James K. Folsom في *So Dreadful a Judgment: Puritan Responses to King Philip's War, 1676-1677*، ص ٣٨١.

(١٧) *The Invasion of America*، ص ٢٢٧.

(١٨) راجع درينون في *Facing West*، ص ٤٥١.

(١٩) Edgar Cahn في *Our Brother's Keeper: The Indian in White America*، ص ١٧٦.

(٢٠) Lawrence Stone في *The Family, Sex and Marriage in England, 1500-1800*، ص ٤٨٧.

(٢١) Edward Lazarus في *Black Hills, White Justice the Sioux Nation Versus the United States*، ص ٢٩.

(٢٢) *The Invasion of America*، ص ١٦٠.

(٢٣) راجع Clifford Shipton في *Sibley's Harvard Graduates*، مجلد ٦، ص ٤٠٧ و ٧:١٧٧.

(٢٤) راجع مقالة James Axtel عن السلخ في كتابه *The European and the Indian: Essays in the Ethnohistory of Colonial North America*، ص ٢٢٨.

(٢٥) Peter S. Scmaltz في *The Ojibwa of Southern Ontario*، راجع ص ٩٩-١٠١.

(٢٦) هناك كثير من اللوحات التاريخية التي تخلد صورة «وتزل» في مشاهد بطولية مختلفة. وهناك مقاطعة في «وست ڤرجينيا» باسمه، وكذلك هناك طريق عابرة للولايات باسمه. ومازال كهوفه ومواقع بطولاته محجّاً للأميركيين. لوتزل الآن أكثر من عشرة مواقع احتفالية على الإنترنت وهناك، لمن أراد الاستفاضة في سيرته، عشرات الكتب التمجيدية، منها: كتاب Clarence Brent Alman بعنوان: *Lewis Wetzel, Indian Fighter: The Life and Times of Frontier Hero.* وكتاب Cecil B. Hartley بعنوان: *Lewis Wetzel, The Virginia Range*.

(٢٧) "still reeking with the blood of those unhappy victims [as being] in rapture of...". راجع اليوميات في *Michigan Pioneer and Historical Collection*، العدد ٩، ١٨٨٦، ص ٥٠١-٥٠٢.

(٢٨) راجع هذه المآثر الإلهامية عند Ian Paden في *The Fighting Elite: U.S. Rangers*، ص ١٦-٢٥.

(٢٩) لمزيد من هذه المذابح التي كانت سلطات كاليفورنيا تشرف عليها رسمياً أو تتعاقد مع شركات خاصة بخصوصها. راجع Lynwood Carranco and Eastle Beard في *Genocide and Vendetta: The Round Valley Wars of Northern California.*

(٣٠) راجع John Sugden في *Tecumseh's Last Stand*، ص ١٨٠.

(٣١) David E. Stannard في *The Conquest of the New World, American Holocaust*، ص ١٢١.

(٣٢) David Svalsi في *Sand Creek and the Rhetoric of Extermination: A Case Study in Indian-White Relations*، ص ٢٩١. ومعظم الشهادات والمعلومات عن مذبحة ساند كريك مستمدة من هذا الكتاب ومن كتاب Stan Hoig بعنوان *The Sand Creek Massacre*، ومن تقرير الكونغرس الثامن والثلاثين، الدورة الثانية لعام ١٨٦٥: *Report on the Conduct of the War*. يقول جون تولاند John Toland في كتابه *Adolph Hitler*، ص ٧٠٢: إن البيوريتان [الزنابير] استعاروا كل مبررات العبرانيين اللاهوتية لإبادة الكنعانيين واجتياح بلادهم. ولعل من سخرية القدر أن الفوهرر كان يبدي إعجاباً بنجاعة الإبادة الجماعية للهنود الحمر ويعتبرها من التجارب الرائدة التي يحتذيها في خططه وبرامجه. إن الطريق إلى أوشڤتز بدأ من كنعان العالم الجديد..

(٣٣) المصدر السابق.

(٣٤) المصدر السابق.

(٣٥) المصدر السابق.

(٣٦) المصدر السابق.
وتقول أغنية وايت آنتلوپ الشهيرة:
يصرخ الأطفال في وجه البنادق. وتحت شمس الخريف، فوق رمال ساند كريك، تتردد أغنية وايت آنتلوپ: «البقاء للتراب والجبال».
ماذا ننتظر غير ذلك ممن خطفت طبول الحرب قلوبهم، يخبّون فوق الأعشاب موجاً يتدافع على مدى البراري: «البقاء للتراب والجبال».
بأي عمى رأوا هذا العجوز متهوراً يقف حيث لا بد للجنود الزاحفين ببنادقهم المجنونة أن يصرعوه فوق الرمال: «البقاء للتراب والجبال».
يالعيونهم العمياء. لم يستطيعوا أن يعرفوا أي حقيقة يجلوها وايت آنتلوپ لهم فيما تدوي أغنيته في مدى البراري: «البقاء للتراب والجبال».
حياة أطفالهم ومصيرهم نفسه مكتوب في شجاعة تلك الصرخة من أجل السلام، السلام الذي لطخوه بالدم فوق الرمال: «البقاء للتراب والرجال».

(٣٧) المصدر السابق.

(٣٨) المصدر السابق.

(٣٩) Svaldi، ص ٢٩٨.

(٤٠) Thomas G. Dyer في كتابه عن روزفلت *Theodore Roosevelt and the Idea of Race*، أنظر النص الكامل لإشادة الرئيس روزفلت بمذبحة ساند كريك في ص ٢٩٨-٢٩٩. وعن رأيه في الأعراق المنحطة وضرورة تصفيتها. انظر ص ٧٨-٨٦ و ١٥٩-١٦٤.

(٤١) انظر Stan Hoig في ملحق كتابه *The Sand Creek Massacre*.

(٤٢) John W. Dewer في *War Without Mercy, Race and Power in the Pacific War*، انظر الصفحات ١٨٠ و٣٣٥.

(٤٣) المصدر السابق، ص ٦٤-٦٥.

(٤٤) Ronald T. Takaki في *Iron Cages: Race and Culture in 19th-Century America*. ص ٩٦.

(٤٥) Drinnon، ص ٤٤٨.

(٤٦) المصدر السابق، ٣٦٩و ٤٤٩.

(٤٧) انظر H. Frazier في *Uncloaking the CIA*، ص ٩٧. وللاطلاع على تفاصيل هذه العملية وعدد ضحاياها من مصادر مستقلة أنصح بقراءة الكتب الخمسة التالية التي اعتمدتها هنا واستقيت منها معظم المعلومات والشهادات عن هذه العملية:

١- Michael J. Walsh, Eric Tobias and Greg Walker في *Seal!: From Vietnam's Phoenix Program to Central America's Drug Wars: Twenty-six Years with a Special Operations Warrior*

٢- Douglas Valentine في *The Phoenix Program*

٣- John L. Cook في *The Advisor: The Phoenix Program in Vietnam*

٤- Dale Andrade في *Ashes to Ashes: The Phoenix Program and the Vietnam War*

٥- Stuart A. Herrington في *Stalking the Vietcong: Inside Operation Phoenix, a Personal Account*

(٤٨) أنظر *Facing West*، ص ٤٥٢-٤٥٤.

(٤٩) المصدر السابق، ٤٥٦.

(٥٠) هناك مزيد من التفاصيل عن هذا الإنقاذ العنصري للبيض وفضيحة التخلي عن «الأصدقاء» و«الحلفاء» وكل ما ليس بأبيض في كتاب Frank Shepp بعنوان *Decent Interval, An Insider's Account of Saigon's Indecent End*. راجع الصفحات ١٣٢ و ٢٨٩-٢٩١.

(٥١) *Facing West* ص ٤٤٥.

(٥٢) راجع Douglas Edward Leach في *Flintlock and Tomahawk: New England in King Philip's War*، ص ٢٣٧.

(٥٣) راجع Charles H. Lincoln في *Narrative of the Indian Wars*، ص ١٤ و١٦.

(٥٤) المصدر السابق ٤٥٨.

(٥٥) *The Fire This Time: U.S. War Crimes in the Gulf*، وفيه تفصيل وافٍ لهذه الجرائم التي توجتها الولايات المتحدة وشركاؤها الأياشي بقتل حوالى مليوني عراقي جوعاً ومرضاً بعد التدمير المتعمد لكل أسباب الحياة ومقومات البقاء.

(٥٦) راجع زاوية Christopher Hitchens في *The Nation*، ١٣ شباط/فبراير ١٩٨٩.

(٥٧) انظر George Bush في كتابه *The Life of Mahommed: Founder of the Religion of Islam, and of the Empire of the Saracens*. والكتاب مطبوع عام ١٨٣١، وموجود في مكتبة الكونغرس. ولجورج بوش عشرات الكتب في شروح أسفار العهد القديم. ويعتبر كتابه «وادي الرؤى: إحياء رميم إسرائيل

Valley of Vision: or, The Dry Bones of Israel من أبرز محطات الصهيونية الأميركية الداعية إلى ضرورة العمل من أجل تجميع يهود العالم في فلسطين وتدمير «إمبراطورية السارازن». و«السارازن» هو الاسم الذي كان يطلقه الصليبيون وأوروبيو القرون الوسطى على العرب والمسلمين. وكان الرومان يطلقونه على بعض رعاياهم تحقيراً.

(٥٨) راجع النيويورك تايمز (٢٨ آذار/مارس ١٩٩١). وتعتبر حرب كاناي (٢١٦ق.م) التي شنها هانيبال وحلفاؤه الأفارقة والغال وغيرهم على الرومان في جنوب إيطاليا من أبرز الرموز العسكرية لحروب الإفناء. إن مكان المعركة التي يسميه الطليان Campo di sangue (حقل الدم) هو التعبير الحقيقي عن طبيعة هذه الحرب الأميركية على العراق مباشرة، وعلى الأمة العربية وقضية فلسطين بشكل غير مباشر.

الفصل الرابع

كمائن الاتفاقيات

«إن قدر أميركا الأبدي هو الغزو والتوسع. إنها مثل عصا هارون التي صارت أفعى وابتلعت كل الحبال. هكذا ستغزو أميركا الأراضي وتضمها إليها أرضاً بعد أرض. ذلك هو قدرها المتجلي. أعطها الوقت وستجدها تبتلع في كل بضع سنوات مفازات بوسع معظم ممالك أوروبا. ذلك هو معدل توسعها».

سناتور هارت بنتون في خطاب أمام مجلس الشيوخ، ١٨٤٦

قبل أن يبني عاصمته فوق ما أسماه بالسباخ أو المستنقعات الخاوية marshy wilderness والتي تبين لاحقاً أنها جزء من مدينة هندية عامرة على ضفاف نهر البوتوماك، أمضى جورج واشنطن حياته في الاستيلاء على أراضي الهنود والمضاربة بها وبناء ثروة هائلة وضعته على قمة هرم أغنياء العالم الجديد. ومن خلال هذه القرصنة

العقارية الفريدة بنى واشنطن معظم ملامح سياسته الهندية التي هيأت بعد ذلك لقانون الترحيل القسري. لقد طوّر أعظم آباء أميركا هذه التجربة الشخصية الناجحة في مشروع قرار يسمح للدولة الفيدرالية الفتية بأن تستولي على أراضي الهنود بسهولة أكبر وكلفة أقل. وفي عام ١٧٨٢ وافق الكونغرس على مشروع واشنطن الذي يتلخص بخردقة الأراضي الهندية بالمستوطنين واستدراجهم باستمرار إلى كمين الموت. فالمعروف أن المستوطن في مستعمرات نيو إنغلاند كان بحاجة إلى خمسين هكتاراً من الأرض لنفسه وخمسين هكتاراً آخر كمجال حيوي. وبما أن هذا المجال الحيوي يتحول بسرعة إلى مُلك فإن هناك حاجة لا تنتهي إلى مجال حيوي جديد للمجال الحيوي القديم. هكذا امتد المجال الحيوي الاستيطاني من شواطىء الأطلسي في القرن السابع عشر إلى شواطىء الهادي في منتصف القرن التاسع عشر (أكثر من خمسة آلاف كيلومتر)، وكان كل مجال حيوي جديد يحتاج إلى نشاط «العامل الطبيعي» ومعجزات العناية الإلهية وأضرارها الهامشية.

في خطاب معبر يصف الزعيم «الحية الرقطاء Speckled Snake» لشعبه هنود الكريك هذا الزحف اللانهائي للمستوطنات والمستوطنين فيقول:

> «أيها الأخوة، لقد سمعنا حديث أبينا الكبير. إنه حديث مفعم باللطف. إنه يقول إنه يحب أبناءه الحمر. عندما وصل الإنسان الأبيض من أعالي البحار كان إنساناً ضئيلاً جداً. كانت ساقاه متشنجتين لطول مكثهما في جزمته الكبيرة. وكان يستعطفنا أن نعطيه قطعة أرض صغيرة. وما أن وصل حتى أعطاه الهنود الأرض التي يحتاج لها وأشعلوا له النار ليدفئوه ويريحوه. ولكن ما أن أحس الإنسان الأبيض

بالدفء وانتعش جسده بنار الهنود، وما أن ملأ بطنه من طعام الهنود حتى صار كبيراً جداً يناطح قمم الجبال وتملأ قدماه بطون الوديان. أما يداه فاستحوذتا على بحار الشرق والغرب. ثم إنه أصبح أبانا الأعظم وأحب أبناءه الحمر، لكنه قال: يجب أن تنزحوا قليلاً حتى لا أسحقكم سهواً. بقدم واحدةٍ لبَطَ الرجالَ الحمر عبر الأوكوني (مقاطعة في كارولينا الجنوبية اليوم)، وبالقدم الثانية مسحَ مدننا وقبورَ آبائنا. وفي مناسبة ثانية قال: زيحوا أكثر، وانزحوا إلى ما بعد الأوكوني فهناك مكان بهيج لكم، ولسوف يكون لكم هذا المكان البهيج إلى الأبد. وها هو يقول لنا الآن: إن الأرض التي تعيشون فوقها ليست لكم. انزحوا وراء الميسيسيپي فهناك متسع. وهناك تستطيعون البقاء ما نبت العشب وجرت الأنهار. ولكن ألن يجيء أبونا الأعظم إلى هناك أيضاً؟ [الخطبة ألقيت في ١٨٢٩ قبل اجتياز الميسيسيپي]. إنه يحب أبناءه الحمر ولسانه ليس مشطوراً. يا أخوتي، لقد سمعت من الأب الأعظم أحاديث بديعة، لكنها كلها كانت تبدأ وتنتهي: انزح قليلاً فأنت قريب مني».

كانت حرب ما يسمى بالاستقلال قد وضعت أوزارها وصار متقاعدوها عبئاً اقتصادياً واجتماعياً. وكانت خطة واشنطن ترمي إلى إقطاع أراضي الثغور لهؤلاء المحاربين المتقاعدين، واستثمار طاقتهم القتالية اقتصادياً وسياسياً بحيث يستمر التوسع داخل أراضي الهنود دون الحاجة إلى الجيوش والحرب الشاملة. ومضى الرئيس الذي يشع وجهه من الأيقونة المقدسة لورقة الدولار يذكّر أعضاء الكونغرس بأن هؤلاء المستوطنين ليسوا رجالاً عاديين بل إنهم أبناء الحروب والمعارك وأصحاب تجربة عسكرية وحنكة

قتالية تمكنهم من ترويع الهنود وإنزال الرعب في قلوبهم ودفعهم إلى الفرار. إنهم يستطيعون إخماد مقاومة الهنود إذا اختار الهنود طريق المقاومة، ويشكلون ميليشيا ممتازة للدفاع عن «استحقاقات» الولايات المتحدة في بلاد أوهايو[١].

في هذا التقليد الإنكليزي العريق الذي يقول ما لا يفعل ويعدُ بما لا يفي، اقترح «واشنطن» عقد سلسلة من الاتفاقيات مع الهنود بهدف الاستيلاء على الأراضي الغنية والمناطق الاستراتيجية اللازمة لأمن المستوطنين في مقابل... وعود... بعدم المساس بما تبقى لهم من الأرض. ومن هذه الوعود التي يقدمها المتفاوضون للهنود أن الولايات المتحدة ستفعل ما في وسعها للحيلولة دون قيام مواطنيها بالصيد أو الاستيطان في أراضيهم.

هذا يعني أن الأب الأعظم للولايات المتحدة في خطته الرامية إلى تعزيز الاستيطان يقر رسمياً بأنه يريد أن يكذب على الهنود قبل أن يفاوضهم، وأن الهدف الأول هو خداع الهنود وكسب ما يمكن كسبه على طاولة المفاوضات في مقابل «وعود» يقرر سلفاً وعلناً عدم الوفاء بها. ولضمان ذلك يوصي «واشنطن» بأن تكون وعود المفاوضين شخصية وغير ملزمة للحكومة الأميركية. لقد أحلّته عقدة الاختيار والتفوق من أي التزام إنساني أو قانوني وأوهمته بأنه يملك حق تقرير الحياة والموت والرزق لهذه الكائنات التي لم يستطع أن يراها إلا كما يرى الذئاب. إنه في رسالته إلى جيمس دواين يؤكد على أن «التوسع التدريجي للمستوطنات» يقتضي «أن يفر الهنود المتوحشون على أعقابهم كما يفعل الذئاب، فالذئاب والهنود كلهم وحوش مفترسة وإن اختلفوا في المنظر»[٢]. وقد تم إقرار خطة «واشنطن» بإجماع أعضاء الكونغرس الذين قال بعضهم

إن هذا الأسلوب من الاتفاقيات لن يبقي للهنود في النهاية سوى منعزلاتهم. أما الذين سيحاولون الوقوف في وجهها فإن مصيرهم التهجير القسري أو الإبادة(٣). إن الهندي، كما يقول إدموند مورغن في كتابه المذكور عن «العبودية والحرية في أميركا» لا يستطيع أن يدافع عن نفسه، لأنه لا يملك حقاً يدافع عنه. يكفي أن يفكر في أن يكون له حق حتى يصبح معتدياً وحتى تنطلق عفاريت التدمير والقتل من قمقمها.

وتعتبر هذه الخطة التي تم تنفيذها قبل إقرارها رسمياً، أول تشريع لنظام الترحيل القسري الذي توّجه الرئيس جاكسون بعد ذلك برحلة الدموع. فبمجرد دخول أندرو جاكسون إلى البيت الأبيض ضمت ولاية جورجيا أجزاء كبيرة من بلاد الشيروكي، وذلك في حيل قانونية طالما استخدمها جاكسون لتبرير اغتصاب أراضي الهنود. وظن الشيروكي أن نزاهة القضاء كافية لإنصافهم فلجأوا إلى المحكمة العليا. وبينما كانت القضية تواجه جدلاً بيزنطياً في المحكمة العليا كان اكتشاف الذهب قد جذب أكثر من أربعين ألف مستوطن إلى أراضي الشيروكي بتشجيع من الحكومة. كان العدل يأخذ مجراه فيما كان المستوطنون يصادرون المزارع، ويتملكون الأراضي، ويطردون ويطاردون الشيروكي إلى الغابات، ويتملكون بونانزا أقفرت من أهلها. وأصر الشيروكي على المقاومة السلمية فربحوا قضيتهم في المحكمة العليا بعد أن حكم القاضي جون مارشال لهم باستعادة أملاكهم. أما جاكسون فاعتبر القرار انتصاراً للديموقراطية وفصل السلطات ودولة القانون، وقال وهو يحيل قرار المحكمة للتمسيح: «لقد أصدر القاضي مارشال حكمه. وعليه الآن أن يجد من ينفذه»! هكذا نال الشيروكي بالمقاومة السلمية قراراً تاريخياً من المحكمة العليا انتهى تنفيذه

بطردهم من معظم أراضيهم إلى غرب المسيسيبي حيث لم تكن أيدي «القدر المتجلي» قد طالته أو أعلنت عن أطماعها فيه.

أما الهنود الذين عاكسوا انتشار الحضارة ورفضوا الاحتكام إلى القانون فسرعان ما تولاهم «العامل الطبيعي» بالطرد والقتل، أو كما يعبر عن ذلك توماس جفرسون بدون مواربة: «لقد أبيدوا». وكان شعب الهودينوسوني Haudenosaunee أول من اكتوى بنار الاتفاقيات، فبرغم حقهم في أكثر من نصف ما صار يعرف اليوم بولاية نيويورك بموجب معاهدة فورت ستانويكس Fort Stanwix لعام ١٧٨٤ فإن حاكم الولاية جيمس كلينتون سرعان ما استلبهم بالشمال ما أعطتهم الاتفاقية باليمين، واضطرهم هم وما تبقى من «الأمم الست» إلى الانكفاء بالقوة داخل منعزل بور صغير. أما شعب الأونيدا Oneida الذي اطمأن إلى الاتفاقيات والوعود وأبلى إلى جانب جورج واشنطن في حرب الاستقلال بلاء «الحلفاء» المخلصين منتظراً عيد الشكر، فإن كلينتون تنكر لكل اتفاقيات واشنطن معهم ووعوده لهم فطرد المسالمين منهم إلى وسكنسون وأما المشاغبون فإنهم انتهوا في معصرة غضب الرب. إن كل ما تبقى من هذا الشعب اليوم أسماء رمزية لمدن لا يسكنونها ومقاطعات وأنهار استعصت على أشباحهم[٤].

بذلك أدركت الاتفاقيات من الهنود ما أدركته الأوبئة والحروب المتواصلة، فلم تمض فترة طويلة على خطة واشنطن حتى كان الشمال الشرقي للولايات المتحدة قد تطهر من الشعوب الهندية، وبدأت عيون «القدر المتجلي» تتطلع بعيداً، إلى الغرب من نهر المسيسيبي حيث انهارت فكرة تخصيص هذا الغرب وطناً للهنود. في أقل من ٧٥ سنة ابتلعت هاوية الاتفاقيات ما يعرف اليوم بولاية

ميزوري، وأركنسا، وإياوا، وأتت الاجتياحات على الباقي، فمن لم يمت بالسيف مات بالاتفاقيات. وكان الغزاة في أثناء ذلك قد اجتاحوا تكساس، وضموا أورغون، وأيداهو، وواشنطن التي تخلى عنها البريطانيون بعد حرب الاستقلال لأعدائهم الثوار ورفضوا أن يعطوها لحلفائهم الهنود الذين حاربوا إلى جانبهم وبذلوا دمهم في سبيل تاجهم. وفي عام ١٨٤٨ عندما اجتاحت الولايات المتحدة المكسيك وسلخت نصف أراضيها واستولت على كاليفورنيا وأريزونا ونيڤادا وأوتاوا ونيومكسيكو وجنوب كولورادو صار غرب المسيسيپي أقتل من شرقه، وأطبق الحصار على هؤلاء الأشقياء من كل جانب.

في البداية، ظن المستعمرون أن «غرب المسيسيپي» هو المزبلة المناسبة للهنود، وأن هذه الصحراء الأميركية التي تتضمن ما يعرف بالسهول الكبرى هي المنفى المثالي لتهجير من لم يقطفه سيف المنون. وقد اعترفت الولايات المتحدة في كل الاتفاقيات التي عقدتها مع الهنود في فورت لارامي Fort Laramie عام ١٨٥١ بأن كل ما يعرف بالسهول الكبرى هو منطقة هندية ذات سيادة تخص هذا الشعب الهندي أو ذاك، وتعهدت بأن لا تنشىء فيها مستوطنة أو تجمعاً سكنياً دائماً. لكن اكتشاف الذهب بعد سنوات قليلة في التخوم القريبة من هنود الشايين وتدفق المغامرين بأعداد كبيرة اضطر الحكومة الفيدرالية في ١٨٦١ إلى «فبركة» وثيقة مزورة يتخلى فيها الهنود دفعة واحدة عن ٩٠ بالمئة من أراضي السهول الوسطى. وعندما رفض زعماء الشايين الاعتراف بهذه الوثيقة المزورة وأبرزوا المعاهدة الأصلية التي لا يزال كل الذين فاوضوا عليها ووقعوها على قيد الحياة، اتهمتهم الحكومة الفيدرالية بخرق المعاهدة واعتبرت تصرفهم إعلاناً للحرب. وسرعان ما تعالت نداءات الإبادة، لكن

القائد العسكري سكوت أنتوني Scott J. Antony فضّل سياسة الإبادة بالحصار والتجويع والتدمير الشامل للبنى الاقتصادية اللازمة للحياة لأنها أسهل من الحرب المسلحة وأجدى وأقل كلفة، ولأنها لن تترك أمام الشايين من خيار سوى الهجرة أو الموت جوعاً.

ومع اكتشاف الذهب والفضة والثروات الخام تحت أقدام الهنود هنا وهناك، تكرر خرق الاتفاقيات في معظم مناطق السهول الكبرى وتعرضت الشعوب الهندية لحرب تجويع شرسة أبيد فيها بين ما أبيد كل احتياطي الجواميس في هذه المناطق الممتدة طبيعياً من حدود المكسيك جنوباً حتى القطب شمالاً. أما الذين قاوموا، كشعب السانتي، فأصبحوا هدفاً مشروعاً لحرب الإبادة. وفعلاً فقد وجه حاكم داكوتا دعوة علنية إلى إبادتهم أو ترحيلهم. ولما رفضوا التهجير زحف إليهم الجنرال هنري سيبلي Henry H. Sibley على رأس بضعة آلاف من الميليشيا فأعملوا فيهم تقتيلاً وتهجيراً، وصادروا كل أملاكهم لتغطية نفقات الحملة العسكرية، وساقوا الذين استسلموا منهم، وكانوا في حدود الألفين، إلى زرائب مهجورة حيث أقيمت أكبر حفلة إعدام جماعية في تاريخ أميركا. ثم أعلنت الولاية عن مكافأة لكل من يأتي بفروة رأس لأحد «الفارين»، فاستعر صيد الرؤوس لأكثر من سنة إلى أن تتوج بنصب كمين للزعيم لتل كروو Little Crow العائد من كندا حيث قتل، وتلقى قاتلوه خمسمائة دولار إضافة إلى مكافأتهم، ثم نصبت فروة رأسه وجمجمته في مكان عام من سانت پول للذكرى والاعتبار[٥].

هوامش الفصل الرابع

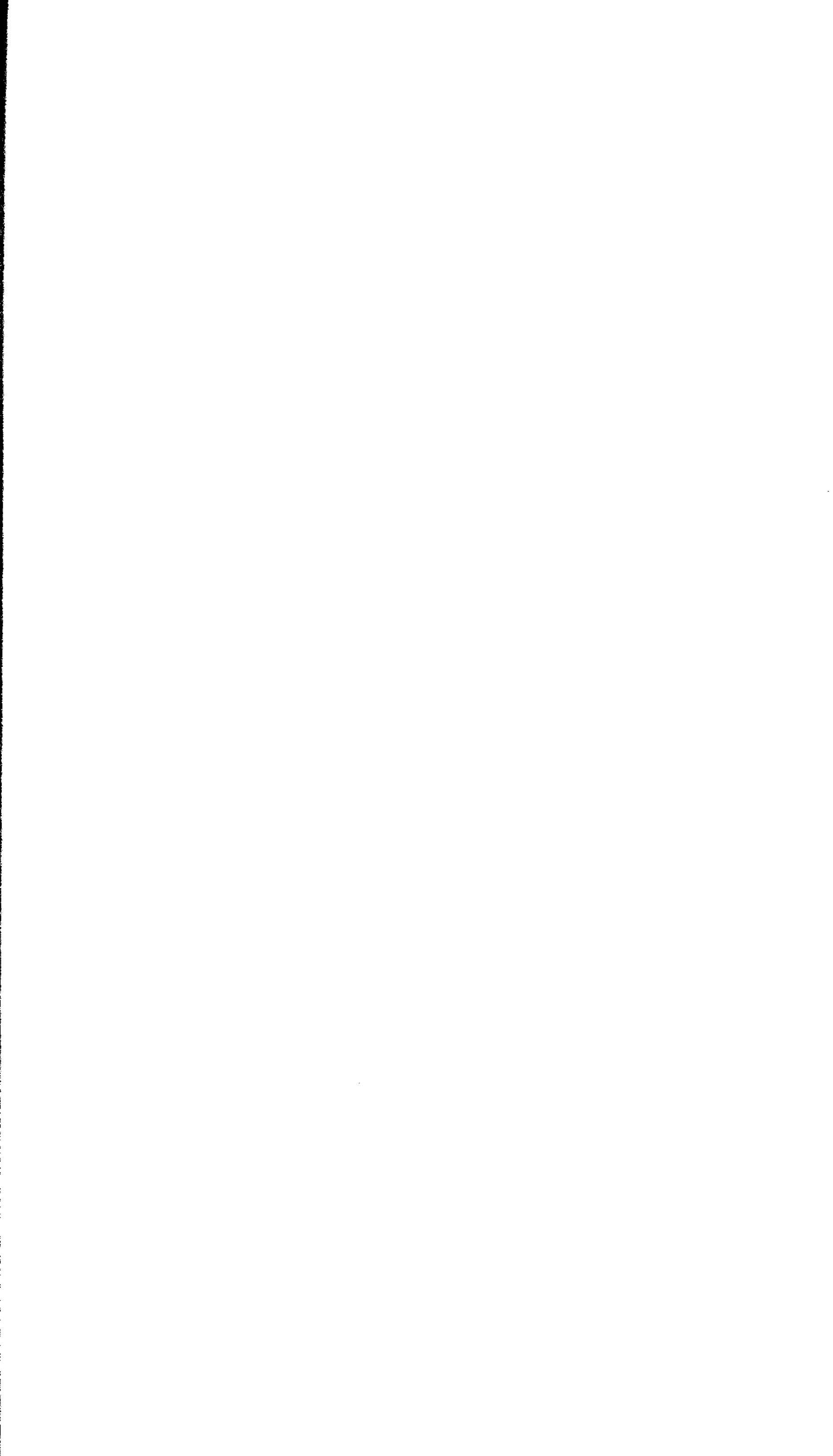
(١) Allan W. Eckert في *The Dark and Bloody River*، ص ٤٤٠.

(٢) Richard Drinon، ص ٣٣١. وانظر أيضاً Francis Paul Prucha الذي جمع معظم وثائق الولايات المتحدة الخاصة بالسياسة الهندية في واشنطن *Documents of United States Indian Policy*، ص ١ و٢.

(٣) Eckert، ص ٤٤١.

(٤) لمزيد من المعلومات حول كمائن الاتفاقيات، راجع Georgiana C. Nammack في *Fraud, politics, and the Dispossession of the Indians; the Iroquois Land Frontier in the Colonial Period.*

(٥) Dee Alexander Brown في *Bury My Heart at Wounded Knee* ص ٦٠.



الفصل الخامس

اقتل الهندي واستثنِ الجسد

«هاهم الآن، بعد أن أفنوا شعوبنا، يريدون أن يشوهوا الروح الهندية، وأن يزيلوا أغلى ما نعتز به. يريدون أن يمحوا تاريخنا، ويعبثوا بتقاليدنا الروحية. يريدون أن يعيدوا كتابة ذلك من جديد وأن يخلقوه خلقاً آخر. إن أكاذيبهم لم تتوقف بعد ولصوصيتهم ليس لها حدود».

مارغو ثندربيرد (من الحركة الهندية)، ١٩٨٨

لم يدرْ بخلد الغزاة أن هذه الشظايا التي بقيت من أوطان الهنود تكتنز ثروات باطنية هائلة. لم يحشروهم في هذه المفازات القاحلة من الأراضي ولم يتخلوا لهم عنها (موقتاً) إلا لأنهم ظنوا أنها مجرد ثقوب سوداء يمتص فيها الموت من تبقى من أمم الهنود حيث لا يراهم أحد ولا يبكيهم أحد. كان الخوف من استحالة الإبادة الجسدية الكاملة من أقسى الكوابيس. إن القاتل لا يطيق أن

يرى أحداً يشهد. وكان لا بد لهذه الإبادة من سلاح آخر يبيد «هندية»[١] الهنود.

منذ ١٨٧٠ و«هندية» الهنود تشرب الأنخاب المسمومة. كانت صيحات التذويب الثقافي تواكب حفلات السلخ، وتدعو إلى تدمير هذه الهندية وإعادة بنائها بحجارة التاريخ الأبيض والدين الأبيض واللغة البيضاء. إن نهب ما تبقى من أرض الهنود لا يتم إلا بتدمير هندية الهنود: ثقافتهم وبنيتهم الاجتماعية التي لا تؤمن بالملكية الفردية. لقد صارت «ثقافة الهنود مضرة بالمصلحة الوطنية»[٢]، وليس هناك عدوان على أميركا أخطر من الإضرار بمصلحتها الوطنية التي قد تشمل كل ما يخطر على بالك، بدءاً بالسطو على حسابك المصرفي (وحياتك عند اللزوم) وانتهاء باستثمار آبار نفطك وثروات بلادك. والتزاماً بهذه المصلحة كان لا بد من خلق جديد لهندي ليس له من هنديته إلا البيولوجيا. لا بد من صياغة جديدة لوعيه وذاكرته وأخلاقه ومسلمات عقله. فإذا تعذر قتل الجسد لا بأس من استبطان الموت، ولا بأس به كائناً طافحاً بالمحو ومزيناً بالريش، أو تمثالاً حجرياً منصوباً فوق قبة الكابيتول؛ «رمزاً [سادياً] للحرية». ولا بأس أن يعرف هذا الهندي كل شيء إلا ذاته. وفي هذا الإطار اعتبرت الشعائر الروحية للهنود خطراً وتم تحريم ممارستها. هكذا يمارس الهندي اليوم شعائر روحية منتقاة بأسلوب يتناغم مع «المصلحة الوطنية» ومع البرامج السياحية التي ينظمها البيض.

ولكي تؤتي حملة التذويب ثمارها فتقتلع جذور الكراهية غير المبررة من نفوس الهنود وتشرح صدورهم للتخلي عن أراضيهم، رفعت شعار مفوض الشؤون الهندية

فرانسيس لوپ Francis Leupp: اقتل الهندي واستثن الجسد (حرفياً: استثن الرجل).

وكان أنبياء الوول ستريت قد وضعوا مئات الدراسات عن تلازم الحضارة والملكية الفردية وعن وحشية وشيطانية هؤلاء الذين لا يؤمنون بها. بل إن مارتن لوثر الذي يعتبر الملكية معياراً للتفريق بين الإنسان والحيوان اتهم القديس فرانسيس الأسّيزي بأنه «مختل العقل، طائش، أحمق، شرير» لمجرد أنه كان يطلب من أتباعه أن يتخلوا عما لديهم للفقراء(٣)! ومنذ نزولهم في جيمستاون عام ١٦٠٧ لم يستطع القديسون أن يميزوا بين السماء وعجل الذهب: «لقد وجدنا أرضاً واعدة أكثر من أرض الميعاد، فبدلاً من اللبن وجدنا اللؤلؤ، وبدلاً من العسل وجدنا الذهب»(٤).

وكان الكونغرس قد أقر في ١٨٨٧ قانوناً لتقسيم الأراضي يهدف في النهاية إلى نسف تقليد الملكية الجماعية عند الهنود، واستبدال تقليد «حضاري متنور» به، يعتمد الملكية الفردية. ويقضي القانون بأن يمنح الهندي قطعة مناسبة من أرض بلاده. أما ما تبقى فيعتبر «فائضاً» تتصرف فيه الحكومة الأميركية وفقاً لمصلحتها، كأن تستثمره بواسطة الشركات «البيضاء»، أو تعلنه محميات طبيعية ومناطق عسكرية. بهذا التزوير المناسب لثقافة الهنود تسيطر المصلحة الوطنية على مئة مليون فدان جديد من أصل ١٥٠ مليون فدان ماتزال بين يدي الهنود.

كذلك اقتضت المصلحة الوطنية ترحيل أطفال الهنود عن أهلهم وإخضاعهم في أبكر سن ممكنة لغسيل دماغ منظم داخل معسكرات مدرسية أعدّت خصيصاً لنحت أرواحهم. وتتولى «الهيئات الفنية»

إعادة صياغة ذاكرتهم الجماعية ووعيهم لأنفسهم وللعالم: هيئات فنية ذات طبيعة بوليسية تمنع على الأطفال أن يتحدثوا بلغتهم، أو أن يمارسوا شعائرهم الدينية، أو أن يرتدوا ملابسهم التقليدية، أو أن يزينوا شعورهم على ما تعود عليه آباؤهم وأجدادهم. بل إنها تقتلعهم نهائياً من عالمهم فتضرب حصارًا على كل اتصال ممكن بينهم وبين أهلهم أو أحبائهم «المتوحشين». هكذا تحشى أدمغة هؤلاء الأطفال بكراهية أنفسهم ومجتمعاتهم والشغف بمتابعة غراميات الأميرة ديانا وأخبار اصطبلات جلالة الملكة إليزابيت والاستمتاع بقتل الهنود في أفلام الكاوبوي. أما على الصعيد العملي فإنهم يتخرجون عمالاً يدويين لا أمل لهم إلا بخدمة «المصلحة الوطنية» فيما قد يعين المتفوقون منهم سدنة لمعابدهم الشريفة أو شهود زور في مؤسسات إعلامية على غرار مؤسسة الأهرام للدراسات الدولية. وقد تم تتويج هذا التذويب الثقافي في عام ١٩٢٤ عندما أجبر كل الهنود على حمل الجنسية الأميركية.

وعلى الرغم من نجاح خطة التذويب في زرع بعض الألغام الثقافية داخل المجتمعات الهندية إلا أنها لم تكسر بنيتها «الأسّيزية». وظلت هذه الأراضي الغنية بالذهب والنفط والفحم واليورانيوم ملكاً مشاعاً عصياً على الاختراق. لهذا عززت الولايات المتحدة خطة التذويب الثقافي الكلاسيكية بسلطة استعمارية داخلية يشبّهها الهنود بالتفاحة؛ حمراء الظاهر، بيضاء الباطن. وكان قانون «إعادة تنظيم الهنود Indian ReOrganization» الذي أقره الكونغرس في ١٨ حزيران/يونيو ١٩٣٤ قد أطلق على هذه السلطة اسم «مكتب الشؤون الهندية» وألحقها بوزارة الداخلية التي تُعنى عادة بثروة الولايات المتحدة من الحيوانات البرية والغابات والأنهار والمحميات الطبيعية.

وبالطبع فإن مواد القانون أعطت للهنود شكلاً ظاهرياً من أشكال الحكم بينما ساعدت خطة التذويب الثقافي على خلق الأطر المناسبة لهذا الاستعمار الداخلي وجعلِه الشكلَ الأمثل للقضاء على هندية الهنود ولسيطرة الزنابيرعلى ثرواتهم واستغلالها لقاء عائدات رمزية يُستثمر معظمها في زراعة «التفاح»[٥].

ومنذ البداية أراد عضوا الكونغرس اللذان اقترحا قانون «إعادة تنظيم الهنود» وسمي باسمهما Wheeler - Howard Act أن تجترح هذه السلطة الاستعمارية الداخلية أكبر معجزات العناية الإلهية وأن تضع اللمسات الأخيرة على خطة الإبادة الشاملة وتتولى تنفيذ سياستها. وفي إطار هذه السياسة تنشيط خطة التذويب الثقافي والنجاح في شطب ١٠٨ شعوب من قائمة الشعوب الهندية المعترف بها رسمياً، بكل ما يعني ذلك من تبخر حقوقهم التاريخية في أرضهم وثرواتهم. ومن ذلك أيضاً المساعدة على تعقير ٤٢ بالمئة من النساء الهنديات القادرات على الحمل قبل أن تفتضح هذه الجريمة في منتصف السبعينيات ويتوقف العمل بها ظاهرياً من دون معاقبة أحد ومن دون أن يخسر وظيفته أحد. ومن ذلك قتل ما تبقى من شعب النافاهو بالنفايات المشعة من مناجم اليورانيوم المنهوب من أراضي منعزلاتهم التي ظن البيض أنها لن تكون أفضل من مزابل بشرية. ومن ذلك تحويل الهنود إلى حقول تجارب في المختبرات الطبية والبيولوجية، بدلاً من الفئران، كما حدث في منتصف الثمانينيات عندما أجرت شركة نورث سلوپ North Slope على هنود الإنويت Inuit تجاربَ طُعم التهاب الكبد الذي منعت منظمة الصحة العالمية استخدامه لتسببه في مرض الإيدز. ولما علم زعماء الإنويت بذلك ورفضوا الاستمرار في «قتل» أطفالهم نجحت السلطة في نقل التجارب إلى الغافلين من هنود الجنوب.

لقد جرب الجلاد المقدس أسلحة صيد كثيرة، لكنه أبداً لم يتخل عن هاجس الإبادة الكاملة. إن إبادة ١١٢ مليون إنسان ينتمون إلى أكثر من أربعمائة أمة وشعب جريمة لم يعرف التاريخ الإنساني مثيلاً لها في حجمها وعنفها وفظاعتها، لكنها جريمة لم تكتمل فصولاً ولم تصل بعد إلى غايتها المرسومة «بيد القدر».

هوامش الفصل الخامس

(١) هناك مشكلة اصطلاحية مع تسمية كل الأمم والشعوب الأميركية بالهنود. فالاصطلاح منذ يومه الأول كان نتيجة الظن الكاذب بأن كولومبوس وصل إلى الهند، ثم إن جزافية هذا الاصطلاح صهرت الاختلافات الثقافية لأكثر من أربعمائة أمة وشعب بدائي ومتطور في مصهر هذا الاسم الظني. إن هذا لا يختلف عن تسمية كل الشعوب الأوروبية باسم «المغول» مثلا، أو تسمية كل الأمم التي تعيش في آسيا باسم «الڤايكنغز». لقد وضعت عقلية الإبادة أول معجم أوروبي دارج في التاريخ البشري حين سلبت هذه الأمم المختلفة اللغات والعادات والثقافات والديانات خصائصها، ودمغتها –دمغ المواشي– بخاتم الهند. إن عقلنا البشري اليوم يقف عاجزاً أمام أكبر كذبة اصطلاحية عنصرية في تاريخ الإنسان. لقد فرضها التاريخ المنتصر مسلّمة لا يمكن للعقل تخطيها أو تجاوزها دون أن يجد صعوبة في الفهم والتواصل. أليس هذا ما كان يعنيه هتلر بقوله «إن حظ الكذبة في التصديق يزداد طرداً مع ازدياد حجم هذه الكذبة»؟ إن ميثاق الإبادة لعام ١٩٤٨ يقول فيما يقول: «التسبب في إزالة ثقافة من الوجود هو عمل من أعمال الإبادة The causing of any culture to cease to exist is an act of genocide.، وماجرى في أميركا لم يكن إبادة لثقافة واحدة بل لأكثر من أربعمائة ثقافة مختلفة المستوى. إن خطر سابقة هذه الإبادة الثقافيه أنها أصبحت مثالا يمكن احتذاؤه في كل المناطق الخاضعة أو المرشحة للغزو والإجتياح الحضاري».

(٢) من رسالة كتبها مفوض الشؤون الهندية شارلز بيرك Charls Burk إلى السناتور الجمهوري وليم وليمسون William Williamson في ١٢ أيلول/سبتمبر ١٩٢١.

(٣) الشاهد من Richard Schaltter في *Private Property: The History of an Idea* ص ٨٨. والغريب أن هذه الأفكار اللوثرية التي وضعت أسس الدين الاقتصادي الأميركي تتنافى مع أبسط التعاليم التي يقول بها الكتاب المقدس: «بع كل ما لك ووزع على الفقراء فيكون لك كنز في السماء، وتعال اتبعني». انظر لوقا ٢٢:١٧ و ١١:٥ و٢٨:٥ و٣٣:١٤.

(٤) A lande that promisses more than the Land of promisse: Inn steed of mylke we fynde pearl. / & golde Inn steede of honye. من رسالة كتبها سير وولتر كوپ إلى لورد ساليزبوري يبشره فيها بسعادة الدين والدنيا. راجع

Philip L. Barbour في *Jamestown Voyages Under the First Charter, 1606-1609*. مجلد ١، ص ١٠٨. وفي الرسالة إشارات عديدة إلى الأوبئة التي نشرها الإنكليز في هذه المنطقة.

(٥) يطلق الهنود على خونتهم من عملاء البيض اسم «التفاح» باعتبار أن ظاهرهم هندي «أحمر» وباطنهم أبيض.

الفصل السادس

المعنى الإسرائيلي لأميركا

«قدر الهندي الذي يواجه الأنكلوسكسوني مثل قدر الكنعاني الذي يواجه الإسرائيلي: إنه الموت».

جيمس بولدين، نائب في الكونغرس ما بين ١٨٣٤-١٨٣٩

«أن تكون يهودياً باللحم والدم لا يعني شيئاً. أما أن تكون يهودياً بالروح فهذا يعني كل شيء».

جورج فوكس ١٦٢٤-١٦٩١

إن أميركا ليست إلا الفهم الإنكليزي التطبيقي لفكرة إسرائيل التاريخية، وإن كل تفصيل من تفاصيل تاريخ الاستعمار الإنكليزي لشمال أميركا حاول أن يجد جذوره في أدبيات تلك الإسرائيل، ويتقمص وقائعها وأبطالها وأبعادها الدينية والاجتماعية والسياسية، ويتبنى عقائدها في «الاختيار الإلهي» وعبادة الذات وحق تملك

أرض وحياة الغير. لقد ظنوا أنفسهم، بل سموا أنفسهم «إسرائيليين» و«عبرانيين» و«يهوداً»، وأطلقوا على العالم الجديد اسم «أرض كنعان» و«إسرائيل الجديدة»، واستعاروا كل المبررات الأخلاقية لإبادة الهنود (الكنعانيين) واجتياح بلادهم من مخيلات العبرانيين التاريخية.

ولا أنكر أن الانسياق وراء قياس التمثيل في دراسة الحوادث التاريخية قد يؤدي أحياناً إلى شيء من التضليل. لكن السؤال عن وجوه الشبه ووجوه الاختلاف بين حادثتين تاريخيتين يجاب عنه دائماً بلا، وبنعم. فعلى مستوى معقول من التدقيق والتمحيص في التفاصيل لا بد من اكتشاف بعض وجوه الاختلاف، وعلى مستوى معقول من التجريد لا بد من اكتشاف بعض وجوه الشبه. وبرغم قناعتي بأن وجوه الشبه عديدة على المستويين التجريدي والتفصيلي، يبقى علي أن أجيب: هل إن السؤال عن المعنى الإسرائيلي لأميركا ممكن، ويستحق العناء؟ وهل إن المستوى التجريدي الذي يكشف عن إسرائيلية أميركا هو فعلاً مستوى معقول ويمكن البناء عليه؟[١]

إن فكرة أميركا، فكرة «استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة» عبر الاجتياح المسلح وبمبررات «غير طبيعية» هي محور فكرة إسرائيل التاريخية. وإن عملية الإبادة التي تقتضيها مثل هذه الفكرة مقتبسة بالضرورة - بشخصيات أبطالها (الاسرائيليين، الشعب المختار، العرق المتفوق) وضحاياها (الكنعانيين، الملعونين، المتوحشين البرابرة) ومسرحها (أرض كنعان، وإسرائيل) ومبرراتها (الحق السماوي أو الحضاري) وأهدافها (الاستيلاء على أرض الغير واقتلاعه جسدياً وثقافياً) - من فكرة إسرائيل التاريخية.

هـذا الاعـتـقـاد بأن هنـاك قدراً خاصاً بأميركا وأن الأميركيين هم الإسرائيليون الجدد و«الشعب المختار» الجديد يضرب جذوراً عميقة في الذاكرة الأميركية. وما يزال صداه يتردد في اللغة العلمانية الحديثة أو ما صار يعرف بالدّين المدني Civil Religion[٢]. إنه اعتقاد يتجلى لعينيك في معظم المناسبات الوطنية والدينية وفي كل خطابات التدشين التي يلقيها الرؤساء الأميركيون مفاده أن «إرادة الله، القدر، حتمية التاريخ...إلخ» اختار الأمة الأميركية (الأنكلوسكسونية المتفوقة) وأعطاها دور المخلّص (الذي يعني حق تقرير الحياة والموت والسعادة والشقاء لسكان المجاهل)[٣].

ولطالما كانت فكرة «الاختيار الإلهي» محركاً لولبياً في التاريخ الأميركي والأساس الميتافيزيقي لمعظم الممارسات العنصرية في التاريخ القديم والحديث. ولشد ما أشعلت النيران في الحماسات والمشاعر والبواريد وفي القرى والمدن والجثث في أكثر من أربعين دولة اجتاحتها أو قصفتها الولايات المتحدة[٤]، وعززت القناعة بأن لأميركا قدراً أعلى من كل أمم الأرض، وأنه مهما حل بإسرائيل فوق أرض فلسطين فإن إسرائيل الأميركية تبقى القلعة المحصنة لإعادة بنائها ولقيَمها ومبادئها وأخلاقها. إن يهود الروح الذين يمثلهم الأنكلوسكسون هم الذين يحملون رسالة «إسرائيل» التي تخلى عنها اليوم يهود اللحم والدم، وهم الذين أعطاهم الله العهد والوعد، وهم الذين ورثوا كل ما أعطاه الله تاريخياً ليهود اللحم والدم (ومعظمهم من ألد أعداء السامية). لقد اختار الله يهود اللحم والدم موقتاً، وبشروط أخلفوها، ولكنه اختار الأمة الأميركية (الأنكلوسكسون) مؤبداً، لأنها تستأهل الاختيار، ولأنه وهبها كل ما يلزمها من قوة وثروة لأن تكون «شعب الله» و«فوق كل الشعوب»، إلى الأبد.

* * *

منذ الفترة الاستعمارية الأولى كان أطفال القديسين يتعلمون أن مسيرة التاريخ التي ترعاها يد الله الإنكليزي ونعمته أعطتهم دوراً خلاصيّاً. وكانت هذه الافتراضات تقترن بإيمان قيامي مزدوج الهدف: تجميع يهود العالم في فلسطين للتعجيل بمجيء المسيح، وتدمير قوى الشيطان التي كانت تتمثل يومئذ بالعثمانيين والكاثوليك والهنود الكنعانيين. وبالطبع فقد وجد بعض السياسيين الإنكليز في استعمار العالم الجديد فرصة لتحقيق ما عجزوا عن تحقيقه في وطنهم. وبذلك تأكد لهم أن خروجهم من جزيرتهم يضاهي الخروج الأسطوري للعبرانيين من أرض مصر، ولم يساورهم الشك في أخلاقية استعمارهم وحقهم في إبادة الهنود ومقارنة ذلك كله باجتياح العبرانيين لأرض كنعان وتأييد السماء لإبادة أهلها.

كل أدب المستعمرين الأوائل يؤكد على هذه القدرية التاريخية التي نالت ذروة إبداعها في سيرة وموعظة جون ونثروب، أول حاكم لمستعمرة مساشوستس. أما السيرة فوضع لها مؤلفها كوتون ماذر عنوان «نحميا الأميركي *Nehemias Americanus*» تأسياً بنحميا الأسطوري الذي قاد الإسرائيليين في «عودتهم» من سبي بابل إلى أرضهم الموعودة ونظم الكثير من موجات الهجرة من بابل إلى يهودا، وأشرف على انتشال أورشليم من أنقاضها وأعاد بناءها مدينةً على جبل city upon a hill. وكانت الأجيال اللاحقة قد صنفت هذا الحاكم مع يعقوب وموسى وداود، غير أن اختيار نحميا، بطل إحياء إسرائيل، هو الذي طغى في النهاية. والواقع أن كل سيرة نحميا الأميركي هي مثال على إصرار المستعمرين الإنكليز — إنسان عين الله كما يصفهم ماذر The Apple of God's Eye — على التماهي بين تجربتهم في العالم الجديد وما يرويه العهد القديم

عن تجربة العبرانيين في العالم القديم، أو بتعبير صموئيل فيشر Samuel Fisher في «شهادة الحقيقة *The Testimony of Truth*»: «لتكن إسرائيل... المرآة التي نرى وجوهنا فيها». وأما الموعظة فهي التي ألقاها ونثروب في الحجاج على متن السفينة الأسطورية أربيلا وأكد فيها على العهد الجديد بين الإسرائيليين الجدد وبين يهوه، وعلى الرسالة التي يحملونها إلى مجاهل أرض كنعان الجديدة: «إننا سنجد رب إسرائيل بيننا عندما سيتمكن العشرة منا من منازلة ألف من أعدائنا، وعندما سيعطينا مجده وأبهته، وعندما يتوجب علينا أن نجعل من [نيو إنغلاند] مدينة على جبل city upon a hill [وهذا التعبير رمز لأورشليم (ولصهيون أيضا)، ومايزال يستخدم إلى الآن للدلالة على المعنى الإسرائيلي لأميركا. وقد سمعت بأذني آخر أربعة رؤساء أميركيين يستخدمون هذا الرمز في مناسبات مختلفة: ريغان، بوش الأب، كلينتون، بوش الابن]».

في منتصف القرن السابع عشر، ساد الاعتقاد بأن الله عاتب على شعبه الجديد وأن هناك بوادر خصومة عبّر عنها ميخائيل ويغل وورث Michael Wiggle Worth أحد أكبر شعراء عصره في قصيدة ملحمية بعنوان «خصومة الله مع نيو إنغلند *God's Controversy with New England*» ندب فيها فشل المستعمرين في أداء واجبهم الرسالي. وتبدأ الملحمة بمقدمة طويلة تصف شيطانية الهنود وظلاميتهم ووحشيتهم وكيف أن هؤلاء العماليق والكنعانيين الملعونين تنطحوا لمحاربة رب إسرائيل ثم انهزموا مذعورين أمام جنوده. وهناك عشرات المحاولات لتقليد هذه القصيدة الملحمية من قبل شعراء ثانويين، كلهم ردوا غضب الله إلى خيانة العهد معه ودعوا إلى تجديده كما فعل العبرانيون القدامى.

ومع انطلاقة ما يسمى باليقظة الكبرى The Great Awakening في منتصف القرن الثامن عشر تجدد الأمل في أن الله لن يتخلى عن شعبه ولن يهجره، وأن الشمس ستطلع من أميركا لتضيء العالم. وكان جوناثان إدواردس أحد أعظم فلاسفة الاستعمار الأنكلوسكسوني في القرن الثامن عشر قد وضع الأسس الفكرية لهذه اليقظة التي ستكون بداية «التجديد الإلهي» لكل الإنسانية. وأكد إدواردس على المعنى الإسرائيلي لأميركا وعلى ضرورة أن تصبح أورشليمَ الأرض (مدينة على جبل city upon a hill) حتى لا تفقد روحها ومعناها. وقدم تفسيراً طوبولوجياً للتاريخ البشري حاول أن يفسر فيه لماذا ستقوم «مملكة الله» في أميركا ولماذا سينتشر نورها قريباً في أنحاء العالم.

وعلى الرغم من أن «اليقظة الكبرى» جددت فكرة المعنى الإسرائيلي لأميركا، وأكدت على أن أميركا هي أرض الميعاد فإن ولادة الجمهورية – على غير المتوقع – أعطت تصديقاً جديداً لهذا الاعتقاد. «إن آلام ولادة الثورة التي أدت إلى الاستقلال أيقظت أبناء المستعمرات على رسالة جديدة في المجاهل». كان انتصار الثورة آية على مباركة الله للطموحات الأنكلوسكسونية. لقد تحولت إسرائيل الله إلى جمهورية، وصار القدر الاستعماري قدراً وطنياً متجلياً. (وكلمة «وطني» أو «قومي» في الولايات المتحدة تعني إجماع الجماعات العرقية والطبقات الاجتماعية المختلفة على ما يريده الزنابير «البيض، الأنكلوسكسون، البروتستانت»، وما تقتضيه مصلحة «ثروة الأمم». ليس هناك إجماع وطني أو قومي على قضية لا تخدم الزنابير أو تفيد ديناصورات وول ستريت).

في كتابه: الولايات الأميركية التي تضطلع بدور بني إسرائيل في

المجاهل... *The American States Acting Over the Part of the Children of Israel in the Wilderness...*، يقدم نيكولاس ستريت Nicholas Street صورة عن لهفة أنكلوسكسون عصره إلى التوسع الاستعماري بعد النكسات التي أعاقتهم عن نشاطهم الأول. إنه يعيد إلى الأذهان ما كتبه ميخائيل ويغل وورث في معلقته «خصومة الله مع نيو إنغلند» حيث أكد بلهجة الوعاظ على أن ما لحق بالنشاط الاستعماري من فتور هو نتيجة حتمية للخطايا والآثام ولإخلاف الوعد مع يهوه. ونبه ستريت إلى أن ظلم فرعون لندن يجب أن لا يحجب العيون عن شرور إسرائيل الله الأميركية، فما لم يتواضع شعب الله لربه، ويتب إليه، ويحافظ على عهده فإنه لن يتحرر من القيد البريطاني ويعبر البحر الأحمر إلى الأرض الموعودة ويحقق استقلالها.

وكان وضع الدستور قد شجّع على تأصير المعنى الإسرائيلي لأميركا كما كتب رئيس جامعة هارفرد صموئيل لانغدون Samuel Langdon في رائعته «جمهورية الإسرائيليين: نبراس للولايات الأميركية *The Repulic of the Israelites, An Example to the American States*»، وهي في الأصل خطبة ألقاها في المحكمة العليا. إن قارئها لن يشك لحظة في أنه يقرأ مقاطع من سفر الخروج أو التثنية، بل إن لانغدون فعلاً يفتتح كلامه عن ولادة الدستور بهذا المقطع من سفر التثنية : «لقد علمتكم فرائض وأحكاماً كما أمرني الرب إلهي لكي تعملوا بها في الأرض التي أنتم داخلون إليها لتتملكوها. فاحفظوا واعملوا، فتلك هي حكمتكم وفطنتكم في عيون الشعوب الذين سيسمعون عن هذه الفرائض ويقولون: ما أعظم هذا الشعب وما أحكمه وأفطنه!...». والواقع أن كل هذه الرائعة شرح واستطراد وتعليق وقياسات تمثيلية بين شريعة موسى والدستور الأميركي وبين

الإسرائيليين والأمة الأميركية. فالدستور مناسبة للتأكيد على وجه الشبه بين ما نزل على موسى من «ألواح» وبين ما نزل على قلب واضعي الدستور. وهي مناسبة للتذكير بأن إسرائيل القديمة والجديدة أمة مختارة، باركها الله قديماً بشريعة ليس لها مثيل وجعلها «فوق كل الشعوب» نبراساً للعالم عبر كل العصور، ثم أكرمها حديثاً بدستور ليس له مثيل وجعلها «فوق كل الشعوب» مثالاً يحتذى عبر كل العصور. فإذا تعلم الناس منهم (طريقتهم في الحضارة) رفعوا من شأنهم، وإذا استكبروا وأبوا جرّوا على أنفسهم الدمار والخراب (والأضرار الهامشية). هذا نرجس الأعمى مرة ثانية يحدق في مياه النهر فتلتبس عليه إسرائيل التاريخية بإسرائيل الأميركية، وما جرى في كنعان الفلسطينية بما يجرى في كنعان الأميركية. وها هو يدير أسطوانه الخروج والعبودية لفرعون مصر وفرعون لندن، ويتذكر بأن الأمتين المختارتين لم يكن لديهما جيش لحظة الخروج لكنهما بعد اجتياز البحر الأحمر والمحيط الأطلسي أعانهما رب الجنود على دخول كنعان وتملكها وتدمير أهلها. «هذا شعب... لا ينام حتى يأكل فريسة، ويشرب دم قتلى» (سفر العدد ٢٣:٢٤). إن تأسيس مجلس الشيوخ أيضاً ليس إلا استمراراً لما فعله موسى عندما اشتكى إلى يهوه أنه لا يطيق الحكم وحيداً فأمره باختيار سبعين رجلاً من الحكماء والرتباء. ولم يجد لانغدون حرجاً من القول بأن حكومة موسى كانت «جمهورية» وقائمة على المبادئ الجمهورية وأن قبائل إسرائيل كانت تحكمها حكومات محلية لامركزية لا تختلف عن الحكومات المحلية للولايات الأميركية.

ولم يكن الآباء المؤسسون للدولة الأميركية مثل جفرسون، وآدامس، وفرنكلين، وباين – أصحاب الاتجاه العقلاني والمذهب

الطبيعي – بأقل حماسة للمعنى الإسرائيلي للأمة الأميركية من الحجاج والقديسين وصاموئيل لانغدون. ومعروف أن فرنكلين وجفرسون كليهما أصر على صورة «الخروج الإسرائيلي» من مصر إلى كنعان كمثل أعلى للنضال الأميركي من أجل الحرية. وفي الرابع من تموز/يوليو ١٧٧٦ (عيد الاستقلال) عهد الكونغرس لفرنكلين وجفرسون أن يضعا تصميماً لخاتم الولايات المتحدة. أما فرنكلين فاختار رسماً لموسى رافعاً يده، والبحر الأحمر منفلق، وفرعون في عربته تبتلعه المياه مع شعار رائج في تلك الفترة: «التمرد على الطغاة طاعة لله». وأما جفرسون فاقترح رسماً لبني إسرائيل في التيه يرشدهم السحاب في النهار وعمود النار في الليل. وكان الرئيس جفرسون من أبلغ من تحدث عن المعنى الإسرائيلي لأميركا.. بل إنه ختم خطابه التدشيني لفترة الرئاسة الثانية بتعبير يشبه الصورة التي اقترحها لخاتم الجمهورية: «إنني بحاجة إلى فضل ذلك الذي هدى آباءنا في البحر كما هدى بنى إسرائيل وأخذ بيدهم من أرضهم الأم ليزرعهم في بلد يفيض بكل لوازم الحياة ورفاه العيش».

في القرن التاسع عشر صار المعنى الإسرائيلي للأمة الأميركية يتمحور حول التوسع باتجاه الغرب وبسط السيطرة على جيران كنعان «وراء النهر» المسيسيبي: المؤابيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين والصيدونيين والمديانيين وبني إسماعيل الذين أسرعت إليهم العناية الإلهية فأنبتت في رؤوسهم الريش وسمتهم جميعاً بالهنود وأعطت أرضهم وأرواحهم لشعب الله. كل هذه الشعوب الهندية وراء النهر كانت تضم بين جنباتها مهاجرين أو لاجئين من هنود كنعان الجديدة، وكان معظمها متحالفاً مع البريطانيين ومطمئناً إلى وعودهم وصداقتهم، ولم

يكن يدور بخلد فرد منهم أن سيوف شعب الله قاب قوسين أو أدنى من رقابهم.

لم يبدأ التوسع باتجاه الغرب إلا بعد أن اشترى الرئيس جفرسون أراضي لويزيانا من نابليون عام ١٨٠٣. فهذا التملك ضاعف مساحة الأراضي التي يستعمرها الإنكليز، ووفّر الشروط الآمنة للملاحة في المسيسيبي. وفتح الشهية لاجتياح الغرب الأقصى. وكانت وسعة «المجاهل» الجديدة وغناها بالثروات قد عززت القناعة بمواكبة العناية الإلهية لتوسع شعب الله، وأن هذه البلاد ما خلقت إلا لكي يتملكها بنو إسرائيل الجدد. ومع تقدم المستوطنين بالبندقية والبلطة والمذابح، واقتضامهم الغرب ميلاً بعد ميل، تضاعف الاعتقاد بالمعنى الإسرائيلي لأميركا وبالاختيار الإلهي للزنابير. وقد عبّر ريتشارد نيبر Helmut Richard Niebuhr عن ذلك في كتابه «مملكة الله في أميركا *The Kingdom of God in America*» بقوله: إن الفكرة القديمة عن شعب الله الأميركي قد أعطت دورها لفكرة الأمة الأميركية المختارة والمفضلة عند الله. ولطالما تناول أدب القرن التاسع عشر توسع أرض كنعان إلى ما وراء المسيسيبي باعتباره خطوة لا بد منها لتصحيح مسار رحلة كولومبس إلى الهند الحقيقية المنتظرة منذ زمن طويل، وباعتباره أول قطف لثمار بستان العالم Garden of the World. لقد صار على غرب المسيسيبي أن يستعد لاستقبال «الأضرار الهامشية» للحضارة وعاداتها؛ عادات الأنكلوسكسون وثقافتهم أو ما صار يصطلح عليه بعد ذلك باسم «طريقة الحياة الأميركية».

وكانت عقيدة القدر المتجلي Manifest Destiny التي سادت منذ أربعينيات القرن التاسع عشر قد أدت إلى بعض الجراحة التجميلية

للمعنى الإسرائيلي لأميركا. فالاصطلاح كما يعرّفه ألبرت وينبرغ Albert Weinberg في كتاب بعنوان «القدر المتجلي *Manifest Destiny*» يعبر عن الثقة المطلقة بالنفس وبالطموحات التي أقرها القدر نفسه بآيات واضحة جلية، بدءًا بآية السفينة التي حملت الحجاج إلى بليموث وانتهاء بالتوسع غرب المسيسيبي الذي رعته العناية الإلهية. ومن أبرز مبررات هذه العقيدة ما يسمى بنظرية «الجغرافيا الحيوية» التي تزعم بأن «المكان الجغرافي للدولة المتفوقة كائن حي ينمو باستمرار(ولا يموت طبعاً)»، ونظرية «القضاء والقدر الجغرافي»، أو الزعم بأن يد القضاء هي التي ترسم الحدود الجغرافية للأمم (لا تعترف الولايات المتحدة، كإسرائيل، إلى الآن بحدود جغرافية لها، وليس في دستورها إشارة إلى ذلك). ومنذ أن أطلق جون أوسوليڤان هذا الاصطلاح في مقالة له بعنوان «التملك الحق» تحول «القدر المتجلي» إلى عقيدة سياسية مفادها أن هذا العالم كله «مجاهل» وأن قدر أميركا (الأنكلوسكسونية) الذي لا ينازعها فيه أحد أن تتملك منه ما نشاء من أرض لأن ذلك حقها الطبيعي، ولأن إله الطبيعة والأمم هو الذي أورثها هذه الأرض، وجعلها -مثلما جعل ألمانيا النازية بعدها- كائناً حياً لا يتوقف عن النمو[٥].

وفي هذه العيادة القدرية أجريت الجراحة التجميلية للمعنى الإسرائيلي لأميركا وفكرة الاختيار والتفضيل الإلهي التي بدأت تزايد على عقدة الاختيار الإسرائيلي. فالسبب الأسمى لاختيار الله لإسرائيل هو سر غامض من أسرار يهوه (النص التوراتي يقول إن الاختيار تم وفقاً لمكيدة إسرائيل بأبيه الأعمى وليس سرّاً من الأسرار كما يعتقد سوليڤن)، أما الآن مع عقيدة القدر المتجلي فإن الله اختار شعبه الجديد لأسباب جلية واضحة، بسبب تفوقه العرقي وغناه وموقعه الجغرافي ومؤسساته الدستورية والخيرية...إلخ.

«لقد تم فك سر الإرادة الإلهية» كما لاحظ ألبرت وينبرغ، وشهدت العلوم الإنسانية ولادة «أنثروبولوجيا قدرية» تولى الله فيها توظيف قضائه وقدره في شركة جورج واشنطن للقرصنة العقارية وسلخ الرؤوس.

اجتياح غرب المسيسيبي وتصحيح مسار رحلة كولومبس إلى الهند الحقيقية هو محور قصيدة والت ويتمان «القومية»: معبر إلى الهند Passage to India التي أعطت عقيدة «القدر المتجلي» أعذب معانيها الشعرية. ومن المفارقات أن ويتمان لم «يعبر» المسيسيبي في حياته ولم يشهد هذا الغرب الذي غناه في قصائد كثيرة من أبرزها «أيها الرواد Pioneer, O Pioneer» التي تغزل فيها بأبطال اجتياح الغرب الذين خلقوا مصيراً جديداً للعالم. في قصيدة «معبر إلى الهند» التي نشرها عام ١٨٧١ ومجّد فيها، بدهشة حافظ إبراهيم، ثلاثة إنجازات إنسانية ربطت «أوصال العالم» هي شق قناة السويس، وإنشاء «سكة حديد الهادي»، ومد «خط الاتصال الأطلسي» تحت الماء.. باح ويتمان بإيمانه بقدر أميركا المتجلي وراء البحار، وقال إن التاريخ البشري كشف عن هدفه الغامض بعد أن وصلت رحلة كولومبس إلى نهاية مطافها. ويرى الأميركيون أن هذه القصيدة تعبر عن ذروة الطموح إلى مدّ جسر سلطانهم إلى الشرق الساحر، وتفسر الإيمان الشائع بأن أميركا بدأت تمسك بخيوط التاريخ الإنساني.

مع اجتياح الفيليبين وهاوائي وغزو كوبا في سنة ١٨٩٨، ومع سعار التوسع «القدري» وراء البحار كتب جوسيا سترونغ Josiah Strong أشهر كتبه الرائجه «بلادنا *Our Country*» وأشار فيه إلى الارتباط العضوي بين القدر المتجلي وبين الأنكلوسكسون.

وعلى طريقة نوستراداموس أكد سترونغ أن تصميم الله لمستقبل الإنسانية يعتمد كلياً على الأنكلوسكسون. وبرر ذلك بأن الأنكلوسكسون هم الذين قدموا الفكرتين المتلازمتين: الحرية المدنية والمسيحية الروحية الصافية. ولأن الفرع الأميركي للعرق الأنكلوسكسوني هو الذي أعطى هاتين الفكرتين صورتهما الكاملة فقد صارت أميركا هي المؤهلة لأن تمسك بمصير الإنسانية. ولكي يحقق الله لأميركا هذه السيطرة على مصير الإنسانية فقد أوكل إليه سترونغ مهمة العمل على جبهتين: في الجبهة الأولى يغدق الله على شعبه الجديد، العرق الأنكلوسكسوني، كل مايحتاج له للإمساك بهذا المصير، ويهيىء الميسم الذي سيدمغ به [ظهور] شعوب الأرض، وفي الجبهة الثانية يسخّر اللهُ من يُعِدّ [ظهور] شعوب الأرض لتُدمغ بهذا الميسم(٦). (طبعاً إن فكرة العرق الأنكلوسكسوني كذبة لا يعترف بها علم الأعراق. وكل الذين أسسوا لها عرقياً كانوا يشيرون إلى ذلك الخليط المهجن للجماعات البشرية التي تسكن الجزيرة البريطانية من الجرمان والسلت والڤايكنغز.. ثم عمموه – زنبوريا – على تلك الأخوة الضبابية للناطقين بالإنكليزية من البيض...فقط).

وكان دخول أميركا الحربين العالميتين أوسع معبر إلى قدر أميركا المتجلي وراء البحار لدمغ ظهور البشرية بدمغة الأنكلوسكسون الحضارية، أو ما صار يسمى في الاصطلاح الأميركي بنظام العالم الجديد. وكالعادة في كل حرب فإن الرئيس الأميركي (وكان يومها وودرو ولسون) خرج على مواطنيه ليعلن عن ظهور مجاهل جديدة ووحوش جدد هم «الهون الذين خلقوا الشيطان» وليقول إنه لم يورط أبناء الولايات المتحدة في الحرب إلا للدفاع عن الحضارة ضد الهمجية وللدفاع عن«طريقة الحياة الأميركية». (بينما كان

الجنود الأميركيون يقاتلون للدفاع عن طريقة الحياة الأميركية كان تحت طاولة الرئيس ولسون مصاصتان مثل ماريا لوينسكي، هما ماري پيك و إديث غالت). وفي الحرب العالمية الثانية أيضاً أعلن الرئيس روزفلت لمواطنيه أن أميركا تدخل الحرب من أجل إنقاذ العالم، ودفاعاً عن الحضارة وعن طريقة حياتها (وأيضاً كان لروزفلت ماريّتان هما لوسي ميرسر وميسي لوهاند).

خلال الحربين كان السياسيون ونجوم السينما والإذاعات والصحف و«الشو بز» كلهم يمجدون الدور الأميركي «الخلاصي» ويركزون على الاختيار الإلهي ووحدة المصير الأنكلوسكسوني وارتهان مصير الإنسانية كلها لمصير العرق الأنكلو سكسوني المختار، كما عبّر عن ذلك رينهولد نيبور Reinhold Niebur في مقالته «المصير والمسؤولية الأنكلوسكسونية»[٧] قبل قصف هيروشيما وناغازاكي بالقنابل النووية وتدشين عصر الإبادة من السماء.

* * *

بعد أربعة قرون من مواكبة «العناية الإلهية» لحركة التوسع الاستيطاني نحو الغرب أعلن فردريك تيرنر Frederick Jackson Turner أحد أبرز فلاسفة «الثغور» أن «الجبهة القارية» الداخلية انتهت ووضعت أوزارها، وبانتهائها ختمت أميركا حقبتها التأسيسية اللازمة للتوسع وراء المحيط ولبناء إمبراطوريتها الكونية. وعندما نشر كتابه «مشكلة الغرب *The Problem of the West*» أكد على أن التوسع والحرب كانا أساس النماء الاقتصادي الأميركي، ولا بد لاستمرار هذا النماء من استمرار التوسع وعدم إطفاء نار الحرب.

ودعا تيرنر إلى شق قناة لهذا التوسع عبر المحيط والاستفتاح بضم الجزر والبلدان القريبة. إنها حتمية الولادة الأبدية للثغور التي تتقدم باستمرار، وحتمية الولادة الأبدية للحياة الأميركية على هذه الثغور والجبهات التي ستصل الغرب بالشرق لتكمل شمسُ الحضارة الأنكلوسكسونية دورتَها حول الأرض.

نجا شعب الله الجديد من ظلم فرعون لندن، وخرج إلى كنعان الجديدة فقهر قديسوه مجاهلها. وظل الغرب يفر أمام زحوفهم ويتراجع إلى أن لم يبق أمامهم من غرب، وإلى أن صار عليهم أن يخترعوا لزحفهم غرباً ولو في أول الشرق. تلك هي «جبهة القتال»؛ أثبتُ ثوابت التاريخ والنماء الأميركي كما رآها أحد أبرز مؤرخي الولايات المتحدة في القرن العشرين. إنها الآية التي ورث بها شعب الله أرض كنعان، وإنها التجربة الحية والمستمرة لفكرة أميركا: «فكرة استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة». منها بنى المستعمرون لحم أكتافهم واقتصادهم القائم على «حق النهب» والفردية المتوحشة، وبها رفعوا صرح مدنهم على أنقاض المدن الهندية وسوروا حدائقهم بعظام الهنود. لقد كانت هذه «الجبهة» المتقدمة دائماً الوجه السحري لأسطورة أميركا حيث كتب القضاء والقدر للحضارة أن تنتصر على الهمجية، وللإنسانية على الوحوش، وللنور على الظلام، وللخير على الشر، ولله على الشيطان، وللتسامح على التعصب، وللحب على الكراهية، ولإسرائيل على كنعان.

صحيح أن كل الشعوب تُفرغ أعداءَها من إنسانيتهم لأسباب مختلفة وبأشكال مختلفة. لكن قديسي شعب الله الإنكليزي جرّدوا ضحاياهم من إنسانيتهم قبل أن يروهم، وكرهوهم وحكموا

عليهم بالموت قبل أن يشرعوا سفنهم إليهم. إنهم لم يستطيعوا أن يروهم في مكانهم أو في زمانهم أو على حقيقتهم. لقد اخترعوهم من أساطيرهم وشحم غرائزهم، ونحتوهم من مركب زواحفهم[٨] وتعصبهم المقدس، وراحوا يعبدون الله ويقتلون ضجرهم بتكسير هذه الدمى.

وكان المكان (كنعان) في ذلك الغرب لا يختلف عن هذه الصورة. إنه اختراع. وهو مثال في الذهن مستمد من شبكة معقدة من الجنون الديني ووظائف الأعضاء. فأرة تلتقمها الأفعى بلقمة واحدة. هنا في هذا الفضاء السحري لكل مكان جديد وثغر جديد خضعت أخلاق كراهية الكنعانيين لحالة استيلاد جديدة من الذاكرة ومن نظام الهذاء البارانويي ومن وحشية «ثروة الأمم»، ومن الغرور المدفون عميقاً في طبيعة المقدس نفسه.. المقدس الذي لا يتعمد إلا بالدم: «هوذا شعب... لا ينام حتى يأكل فريسة ويشرب دم قتلى». ولقد صارت هذه الأخلاق الإبادية بنفاقها وبسماتها الإنكليزية المسمومة عقيدة وأيديولوجيا، بل صارت النواة الصلبة للقومية الأميركية التي ماتزال تخصب الأدب والفن والسينما وصناعة الجريمة والموت وتعطي أوضح صورة لمفهوم الأميركي عن نفسه وعن العالم.

هذه الأخلاق التي ضربت جذورها في عقدة الاختيار وكراهية الكنعانيين، ورافقت بناء أميركا لحظة لحظة وجبهة بعد جبهة، هي التي جعلت «الأميركيين يعتقدون اليوم، كما كان أجدادهم المستعمرون الأوائل يعتقدون قبلهم، بأن لهم الحق المطلق في أن يقتحموا أي غرب»[٩] في أي مكان من الأرض. إن ميتافيزياء «اقتحام الغرب» التي نسفت نظام البوصلة وأعدت العصر الذهبي

لنظرية الإنكليزي مالثوس جعلت الغرب الأميركي في كل الجهات وفي كل الأرحام. إنه «الغرب» اللانهائي، اللامكان، وإنه كل مكان. إنه فضاء الزنابير، الثقب الأسود الذي يمتص كل شيء، الأرض التالية، وراء الجبهة التالية، وراء الغرب التالي، وراء المجاهل التالية، وراء الإبادة الجماعية التالية. إن عالمنا كله يعيش اليوم تحت رحمة مافيا كولومبس الذي أوصى باستثمار ذهب أميركا في «تحرير أورشليم»، وإن الهنود الحمر الذين أبيدوا بالنيابة عنا، نحن الكنعانيين على الحقيقة[١٠]، ما يزالون يعيشون فينا[١١].

هوامش الفصل السادس

(١) منذ اليوم الأول لوصول المستعمرين الإنكليز إلى العالم الجديد، كما يقول لي فريدمن Lee M. Friedman في كتابه «حُجّاج في العالم الجديد *Pilgrims in a New Land*»، كانوا «يريدون أن ينشئوا في أميركا دولة ثيوقراطية تعيد سيرة اليهود التاريخيين. فالخطباء والوعاظ استمدوا نصوص خطبهم من العهد القديم، وأما الآباء فقد استعاروا منه أسماء أولادهم. لم تكن العبرية لغة ثانوية بل كانت عمود ثقافة المثقفين والمتعلمين المتدينين وغير المتدينين. كان تاريخ اليهود في العهد القديم قراءتهم اليومية، بل لربما كانوا يعرفونه أكثر مما يعرفون تاريخ أي شعب». وقد حاولت بيان جذور هذا المعنى الإسرائيلي لأميركا في «تلمود العم سام The Talmud According to Uncle Sam»، جسور ٩/١٠، وفي «الجلاد المقدس The Holy Executioner»، جسور ٨/٧، وفي «فكرة أميركا»، الكرمل ٥٥/٥٦، ولا مبرر لتكرار ذلك هنا. لكنني الآن سأتناول تطور هذا المعنى الإسرائيلي لأميركا في أبرز محطاته التاريخية الأساسية من خلال عرض خاطف لزبدة مصادر هذه المحطات منذ المرحلة الاستعمارية الأولى حتى الآن، وسأقتصر للفترة الاستعمارية حتى الثورة على:

- Thomas Morton في *New English Canaan*، وهي من المصادر الأساسية لهذا البحث.
- Cotton Mather في *Magnalia Christi Americana*
- Jonathan Edwards في *The Latter-Day Glory Is Probably to Begin in America*

ولفترة الثورة والدستور:

- Nicholas Street في *The American States Acting Over the Part of the Children of Israel in the Wilderness and Thereby Impeding Their Entrance into Canaan's Rest*
- Samuel Langdon في *The Republic of the Israelites, An Example to the American States*

ولفترة التوسع نحو الغرب:

- Albert Beveridge في The Star of Empire وهي منشورة في كتاب Albert Beveridge بعنوان ... The Meaning of the Times
- Lyman Beecher في *A plea for the West*
- Reinhold Niebuhr في Anglo-Saxon Destiny and Responsibility وهي منشورة في *Christianity and Crisis*، أكتوبر ١٩٤٣.
- وقصيدة والت ويتمان aidnI ot egassaP، من ديوانه.

ولفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية:
– Richard Drinon في *Facing West* المذكور أعلاه. والكتاب من المصادر الأساسية لهذا البحث.
– J.William Fulbright في *The Arrogance of Power*.

(٢) من أهم الدراسات الصادرة عن الدين المدني في أميركي كتاب Michael W. Hughe بعنوان *Civil Religion and Moral Order: Theoretical and Historical Dimensions*، وكتاب حرره Leroy S. Rouner بعنوان *Civil Religion and Political Theology* وكذلك كتاب Martin E. Marty بعنوان *Civil Religion, Church and State.*

(٣) راجع مقالة Robert N. Bellah عن الدين المدني في أميركا Civil Religion in America في *Daedolus*، شتاء ١٩٦٧.

(٤) الأرجنتين ١٨٩٠، تشيلي ١٨٩١، هايتي ١٨٩١، نيكاراغوا ١٨٩٤، الصين ١٨٩٤–١٨٩٥، كوريا ١٨٩٤–١٨٩٦، پاناما ١٨٩٥، نيكاراغوا ١٨٩٦، الصين ١٨٩٨–١٩٠٠، الفيليبين ١٨٩٨–١٩١٠ (استولت عليها من إسبانيا وقتلت فيها ما يزيد على ٦٠٠ ألف فيليپيني)، كوبا ١٨٩٨، پورتو ريكو ١٨٩٨ (ماتزال محتلة إلى الآن)، غوام ١٨٩٨ (ماتزال تحتفظ فيها بقواعد عسكرية)، نيكاراغوا ١٨٩٨و ١٨٩٩، پاناما ١٩٠١–١٩١٤، هوندوراس ١٩٠٣، جمهورية الدومينيكان ١٩٠٣–١٩٠٤، كوريا ١٩٠٤–١٩٠٥، كوبا ١٩٠٦–١٩٠٩، نيكاراغوا ١٩٠٧، هوندوراس ١٩٠٧، پاناما ١٩٠٨، نيكاراغوا ١٩١٠، هوندوراس ١٩١١، الصين ١٩١١–١٩٤١، كوبا ١٩١٢، پاناما ١٩١٢، هوندوراس ١٩١٢، نيكاراغوا ١٩١٢–١٩٣٣، مكسيكو ١٩١٣، جمهورية الدومينيكان ١٩١٤، مكسيكو ١٩١٤–١٩١٨، هايتي ١٩١٤–١٩٣٤، جمهورية الدومينيكان ١٩١٦–١٩٢٤، كوبا ١٩١٧–١٩٣٣، الحرب العالمية الأولى ١٩١٧–١٩١٨، روسيا ١٩١٨–١٩٢٢. پاناما ١٩١٨–١٩٢٠، يوغوسلاڤيا ١٩١٩، هوندوراس ١٩١٩، غواتيمالا ١٩٢٠، تركيا ١٩٢٢، الصين ١٩٢٢–١٩٢٧، هوندوراس ١٩٢٤–١٩٢٥، پاناما ١٩٢٥، الصين ١٩٢٧–١٩٣٤، السلڤادور ١٩٣٢، الحرب العالمية الثانية ١٩٤١–١٩٤٥ (استخدمت فيها القنابل الذرية ضد اليابان)، إيران ١٩٤٦، يوغسلاڤيا ١٩٤٦، أوروغواي ١٩٤٧، اليونان ١٩٤٧–١٩٤٩، الصين ١٩٤٨–١٩٤٩، ألمانيا ١٩٤٨، الفيليبين ١٩٤٨–١٩٥٤، پورتو ريكو ١٩٥٠، كوريا ١٩٥٠–١٩٥٣، إيران ١٩٥٣، ڤيتنام ١٩٥٤، غواتيمالا

١٩٥٤، لبنان ١٩٥٨، پاناما ١٩٥٨، ڤييتنام ١٩٦٠-١٩٧٥ (قضت الحرب على حوالى مليوني ضحية)، كوبا ١٩٦١، ألمانيا ١٩٦١، لاوس ١٩٦٢، پاناما ١٩٦٤، إندونيسيا ١٩٦٥، جمهورية الدومينيكان ١٩٦٥-١٩٦٦، غواتيمالا ١٩٦٦-١٩٦٧، كمبوديا ١٩٨٣، عُمان ١٩٧٠، لاوس ١٩٧١-١٩٧٣، تشيلي ١٩٧٣، كمبوديا ١٩٧٥، أنغولا ١٩٧٦-١٩٩٢، إيران ١٩٨٠، ليبيا ١٩٨١، السلفادور ١٩٨١-١٩٩٢، نيكاراغوا ١٩٨١-١٩٩٠، هوندوراس ١٩٨٣-١٩٨٩، غرينادا ١٩٨٣-١٩٨٤، إيران ١٩٨٤، ليبيا ١٩٨٦، بوليڤيا ١٩٨٦، إيران ١٩٨٧-١٩٨٨، ليبيا ١٩٨٩، ڤيرجين آيلاندس ١٩٨٩٧، پاناما ١٩٨٩-١٩٩٠، ليبريا ١٩٩٠، حرب الخليج ١٩٩٠-؟؟؟، (قواتها ماتزال في الخليج وبعض دول الخليج)، الصومال ١٩٩٢-١٩٩٤، يوغسلاڤيا ٩٩٢-١٩٩٤، البوسنة ٩٩٣-١٩٩٥، هايتي ١٩٩٤-١٩٩٦، كرواتيا ١٩٩٥، السودان ١٩٩٨، أفغانستان ١٩٩٨، العراق ١٩٩٨ ومايزال القصف والاعتداء مستمراً وبشكل يومي، يوغسلاڤيا ١٩٩٩، أفغانستان ٢٠٠١. راجع *Congressional Records* (٢٣ حزيران/ يونيو ١٩٦٩)، و*Counterspy* في مقالة لها عن ١٨٠ إنزال أميركي (تموز-آب/يوليو-أغسطس ١٩٨٢). وانظر Daniel Elsberg في *Protest and Survive*.

(٥) في مقالته Geopolitics and the United States المنشورة في *The Contemporary Review* (آب/أغسطس، ١٩٤٧)، يقول W. W. Watkin Davis إن «الولايات المتحدة خاضت الحربين العالميتين لكي تحول دون وقوع مجالها الحيوي الذي يمتد من القطب شمالاً إلى المتوسط جنوباً فشواطىء الصين شرقاً تحت هيمنة غيرها، لأن من يهيمن على هذا المجال الحيوي يهيمن على العالم. لقد أحست أميركا أن أمنها أصبح مهدداً عندما حاولت ألمانيا السيطرة على الجزء الغربي من هذا المجال الحيوي بينما حاولت اليابان السيطرة على جزئه الآخر»، ص ١٧.

إن اصطلاح lebensraum يعني «المجال الحيوي» الذي تحتاج له الأمة الألمانية لأمن مواطنيها ولنمائها الطبيعي والاقتصادي والسياسي. والواقع أن «المجال الحيوي» ليس إلا الترجمة الألمانية لعقيدة «القدر المتجلي» الأميركية. وعلى الرغم من اختلاف وتباعد البيئتين اللتين صدر عنهما كل من هذين الاصطلاحين فإنهما وجهان لعملة واحدة، وتجمع المؤمنين بهما قناعات وتصرفات وعواطف ومثاليات متشابهة تدل على وحدة القوى النابذة التي أطلقتهما، وهي فكرة الاختيار الإلهي والتفوق العرقي والثقافي والأخلاقي.

وعلى الرغم من أن مؤرخي «المجال الحيوي» لا يريدون العودة به إلى أبعد من كتابات مارتن لوثر، ولا يخفون إعجاب هتلر بالتجربة الأميركية، فإن

«ميتافيزيقا» عقيدة القدر المتجلي و«المجال الحيوي» تضرب جذورها في أسطورة «الاختيار الإلهي» المنسوبة إلى الفوهرر السماوي الأعظم. لقد أكد كارل ريتر Karl Ritter في كتابه *Geographical Studies* وإدموند والش Edmund Walsh في *Total Power* على العلاقة بين اصطلاح «المجال الحيوي» وفردانية الشعب الألماني واستثنائيته، وبين البيئة الطبيعية وفكرة الأرض الموعودة.

من أفكار كارل ريتر ونظريته في الطبيعة العضوية للدولة (الكيان الحي) استمد الألماني راتزل Friedrich Ratzel قوانينه السبعة عن النماء الحيوي للدولة وضرورة توسعها الجغرافي. وهذا ما أعطى النازيين مبررات التوسع في مجالهم الحيوي بأي ثمن كان، ولو على حساب حق الشعوب الأخرى في الوجود وحق الدول الأخرى في السيادة على أراضيها. لقد أحلّتهم عقدة الاختيار والتفوق من أي التزام أخلاقي أو قانوني تجاه الشعوب الأخرى، وصاغت لهم الأخلاق اللازمة لطقس التضحية بالآخر، وأوهمتهم بأنهم يملكون حق الحياة والموت والرزق لهذه الكائنات التي لم يستطع قديسو الاستعمار الانكليزي قبلهم أن يروها إلا كما يرون الذئاب.

ومثلما اعتقد القديسون أن نماءهم الاقتصادي يعتمد على توسعهم الجغرافي، كذلك كان النازيون (مع الألماني فريدريك ليست Friedrich List) يعتقدون أن النماء الاقتصادي لألمانيا يعتمد على توسع ألمانيا. وليس غريباً أن هذا النزاع في الحربين العالميتين بين فرعي الدوحة المقدسة لعقيدة الاختيار الإلهي الأنكلوسكسون والجرمان لم يكن إلا صراعاً عائلياً على الهيمنة، وأنه بدأ فعلاً بعد الحرب الفرنسية – البروسية وتوحيد ألمانيا عندما اشتد التنافس بين ألمانيا وبريطانيا على الأسواق الخارجية.

برغم التباين في أساليب تطبيقهما فإن اصطلاحي «القدر المتجلي» الأميركي و«المجال الحيوي» الألماني توأمان ولدا من رحم واحدة لا يفرق بينهما إلا التنافس على احتكار «الاختيار الإلهي». إن أسطورة مكيدة «إسرائيل» بأبيه الأعمى لاغتصاب هذا الاختيار من أخيه «عيسو» (الذي تزعم الأساطير أنه جد العرق الأبيض) استحكمت بمعظم حروب الألمان والأنكلوسكسون في القرن الماضي.

* كلا الاصطلاحين اعتمد بشكل أو بآخر فكرة النماء الطبيعي. فألمانيا النازية وأميركا كلتاهما آمنت بالحاجة الحيوية لنماء الدولة، وبررت الغزو والتوسع انطلاقاً من ذلك. كلتاهما ساوت بين البقاء وبين والتوسع انطلاقاً من النظرية التطورية: البقاء للأقوى؛ (إن إصرار الأميركيين على تجريد العرب من أي قوة لا يمكن فهمه إلا في هذا الإطار الذي حوكم من أجله توماس مورتون من قبل السلطات الاستعمارية الإنكليزية لأنه باع الأسلحة للهنود، كما أوضحت ذلك في المقدمة).

* ألمانيا النازية وأميركا كلتاهما آمنت بأن الاكتفاء الذاتي الاقتصادي يحتم توسع الدولة، وأن النماء الاقتصادي يتوقف على نماء المجال الحيوي. وكلتاهما ربطت مفهوم الحدود الطبيعية بحدود الاكتفاء الذاتي (الذي لا يكتفي أبداً). وهذا ما جعل استقلالَ الدول الأخرى خاضعاً للمصلحة الاقتصادية وحقَّ الشعوب الأخرى في الوجود مسألة فيها نظر.

* ألمانيا النازية وأميركا كلتاهما اعتمدت على استراتيجية جيوسياسية تؤكد على صلاحية الامتداد المستمر للمجال الحيوي. وكلتاهما آمنت بأن هناك حتمية جغرافية لا تُرسم من منظار الأمن القومي وحسب، بل من منظار ضرورة قيادة العالم.

* إن فكرة التفوق النوردي خلقت لدى النازيين شعوراً بأن توسعهم حتمي بسبب تفوقهم الثقافي والعرقي، وأن هذا التوسع واجب أخلاقي تمليه مصلحة الإنسانية وضرورة تهميش الأعراق المنحطة. وهو ما أدى لاحقاً إلى اعتقادهم بحقهم في التوسع اللانهائي من أجل قيادة العالم، ولخير العالم. وهذا بالضبط ما قدمه القدر المتجلي للأنكلوسكسون (الفرع الأميركي، كما سنرى لاحقاً)؛ فهم أيضاً يعتقدون بتفوقهم العرقي والثقافي الذي يمدهم بحق التوسع وقيادة العالم وحق قمع أية مقاومة لهذه القيادة بالحروب والعنف والإبادات. إن أميركا (الأنكلوسكسونية) ماتزال تعتبر نفسها الأمة التوتونية الأعلى أو الأقوى the most vigorous Teutonic nation، وهي لهذا الأمة صاحبة الحق الأعلى في قيادة العالم.

* ألمانيا النازية وأميركا تؤمنان بفكرة انحطاط قوانين وأخلاق الشعوب الأخرى وضرورة عدم احترامها عندما تتعارض مع حقهما في النماء والتوسع. وكلتاهما تؤمن بأن متطلبات النماء والتوسع (الذي يتم باسم الإنسانية كلها أو المجتمع الدولي) قد تستوجب عدم احترام حق الآخرين (المنحطين عرقياً وثقافياً) في تقرير مصيرهم أو سيادتهم على أراضيهم.

لقد كان من رحمة القدر بالشعوب العربية أن نشأ الاتحاد السوڤياتي في بداية القرن وشكل قوة ردع لهذه النازية الأميركية، الأمر الذي ساعد على تأجيل فكرة الاستعباد المطلق لهذه الشعوب أو إبادتها لأكثر من ٧٥ سنة. إن كل ما نراه منذ انهيار الاتحاد السوڤياتي إلى اليوم من تدمير وسائل الحياة ومقومات البقاء، ومن احتلال مباشر وغير مباشر، ومن سيطرة على القرار السياسي والمالي والعسكري المصيري لمعظم عواصم العرب، ومن تورط كثير من أنظمة الاستعمار الداخلي العربية في حرب الإبادة الأميركية، ومن ظهور مؤسسات إعلامية وثقافية ودينية لم يعد لها من همّ إلا تزيين وجه الذئب (مع إبادة أكثر من مليوني عراقي وفلسطيني خلال العقد الماضي) سيجعل الناجين من أمتنا، عاجلاً أو آجلاً، يتأكدون من أن أدمى النازيين الألمان والنازيين الصهاينة كانوا –مقارنة بأصدقائنا قديسي النازية الأميركيين– أرحم من ملائكة الرحمة.

(٦) الشاهد عن مقالة نيبور من Richard Harries في *Reinhold Niebuhr and the Issues of Our Time*. ومقالته نشرت أصلا في *Christianity and Crisis*، ٤ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٤٣.

(٧) الشاهد من كتاب Ernest Lee Tuveson بعنوان *Redeemer Nation: The Idea of America's Millennial Role*، انظر الصفحات ١٦٤-١٦٨. ليس هناك دولة عضو في الأمم المتحدة غامرت عسكرياً وارتكبت جرائم حرب داخل وخارج حدودها، كما فعلت الولايات المتحدة. فابتداء من مغامرة الأرجنتين في عام ١٨٩٠ وتشيلي ١٨٩١، وهايتي ١٨٩١ وهاواني والفيليبين وكوبا عام ١٨٩٨ حتى الحرب الحالية على ما يسمى بالإرهاب تورطت الجيوش الأميركية في أكثر من مئتي مغامرة عسكرية في كل قارات الأرض ارتكبت فيها مجازر ومذابح وجرائم حرب رصد معظمها دانيال إلسبرغ Daniel Ellsberg في مقدمته لكتاب *Protest and Survive*، وإللن كوليير Ellen C. Collier في *Instances of Use of United States Forces Abroad, 1798-1993*.

(٨) مركب الزواحف Reptilian Complex منطقة في الدماغ «تعود [تطورياً] إلى عصر سيادة الديناصورات والزواحف العمياء على الأرض»، اكتشفها پول مكلين Paul Maclean الرئيس الأسبق لمختبر تطور الدماغ والسلوك الإنساني في المؤسسة الوطنية الأميركية للصحة العقلية، وحاول أن يفسر من خلال رسوباتها الزواحفية سلوك هذا «الوحش النائم فينا».

(٩) *Facing West*، انظر ص ٤٦٠-٤٦٧.

(١٠) ما يزال الزنابير يسمون الهنود الحمر بالعرب للمبالغة في التحقير. ويروي وولتر كاوامونو Walter Kawamoto من جامعة ولاية أورغن Oregon State University والمسؤول عن الأقلية العرقية في المجلس الوطني للعلاقات العائلية National Council on Family Relations أن اسم «عرب أميركا» يطلق على الهنود الأميركيين في دروس العلاقات العرقية وفي أدبيات عدد من المنظمات الوطنية الأميركية. كذلك يطلق عليهم اسم «المسلمين الأميركيين» كما في حالة الدراسة العرقية لأسرة Harried McAdoo.

(راجع: http://bioco2.uthscsa.edu/.aises/gst/mhx/chot/msg01235.html).

وتسمية الهنود الحمر بالعرب في النهاية ليست جديدة، ففي دراسة عما يسمى بالهنود الخفاء أو اللامرئيين Invisible Indians تتحدث العالمة الأنثروبولوجية

Louise Heite وزوجها إدوارد عن الهنود الذين كان المستعمرون الأوروبيون يسمونهم باسم «المور»، لا سيما أولئك الذين نجوا من الإبادة وتم استيعابهم في المجتمع الأوروبي الاستعماري، أو الذين نجوا من المذابح على طول الشاطىء الشرقي وعاشوا خارج «المنعزلات الهندية Reservations» أو خارج التجمعات التي تعترف وزارة الداخلية الأميركية بهنديتها. فكل هندي نجا من الإبادة ولم يعش في «المنعزلات» أنكرت الولايات المتحدة عليه هنديته وصارت تطلق عليه اسم «مور= عربي» أو مبغّل Mulato (كلمة مستمدة من تهجين البغال mules) أو زنجي. وقوانين ولاية ڤرجينيا ماتزال إلى الآن تصف طفل الهندي الذي لا يعيش في المنعزلات بأنه مبغّل. والغريب أن بعض عملاء البيض ممن أثروا على حساب إبادة شعوبهم الهندية تمتعوا بصفة البيض فيما ظل آباؤهم أو أخوتهم أو أبناء عمومتهم تحت صنف الزنوج أو المبغلين (راجع *Africans and Native Americans: The Language of Race and the Evolution of...,* لجاك فوربس Jack D. Forbes، ص ٦٧ و١٣١، وكذلك راجع http://home.dmv.com/~eheite/indians/invisible.html). كان تعبير المور (العربي/المسلم) لدى بعض مثقفي وكتاب أواخر القرون الوسطى يعني كل من ليس أبيض. فالإنسانية التي رسمها عصر ألبرخت دورر Albrecht Dürer هي إما أبيض أوروبي مسيحي أو زنجي عبد عربي/ مسلم moore=mohr. ويقول فوربس: إن كلمة more الفرنسية و maurus الإسبانية و الڤالنسية اشتقت جميعاً من الكلمة اللاتينية وتعني الزنجي.

(١١) ليس هناك تضليل أخطر من وصف «ما يجري» بأنه صراع مع الغرب، أو صراع حضارات. أو حرب على الإسلام. إن هذه الاصطلاحات الفضفاضة لا تبدد جهودنا وطاقاتنا وحسب بل إنها تصرف أنظارنا عن مصدر الخطر الحقيقي الذي يهدد بقاءنا الثقافي والجسدي وكل مصادر هذا البقاء وعناصره: أميركا وقففها العربية. أليس غريباً أن الذين يروجون لهذه الصراعات الوهمية هم أنظمة المستعمرات الأميركية المشغولة الآن بتحسين صورتنا كأننا نحتل كاليفورنيا ونسيطر على آبار وعائدات نفط تكساس، ونضرب حصاراً وحشياً على فلوريدا نقتل فيه خمسة آلاف طفل من أطفالها شهرياً...إلخ؟ كل هذه الجهود الحميدة لتحسين صورة الضحية في عين جلادها تتم ضمن حملة على مستوى الأرض لترويض وتنعيج هذا «الوحش» الذي يرفض الاحتلال والهيمنة. فكما أن هناك بقراً وغنماً وخنازير وكلاباً ودواجن يجب أن يكون هناك حيوان أليف آخر اسمه «الحيوان العربي الأليف» الذي يعطي ضباعَ الله طائعاً وبجبرية قدرية صوفَه وحليبَه وسخاله... وحياتَه إذا لزمت طقوس التضحية.

إنه لمن الغريب حقاً الاعتقاد بأن هناك صراعاً جغرافياً مع الغرب وعلاقاتنا مع

كل الشعوب والدول الغربية باستثناء الولايات المتحدة وقفّتها البريطانية، بدءاً من دول بحر الشمال كالدانمارك والسويد والنروج وانتهاء بدول المتوسط كإسبانيا وإيطاليا واليونان– لا تختلف كثيراً عن علاقاتنا مع دول آسيا وأفريقيا. إن معظم هذه الدول الغربية أكثر نبلاً وإنسانية وحرصاً على العرب والمسلمين من أنظمة الاستعمار الداخلي العربية! أي صراع تواجهنا به فنلندا وألمانيا ولوكسمبورغ وسويسرا؟
كذلك فإن القول بأن هناك صراعاً مع «الحضارة الغربية» هو أكثر تضليلاً ولؤماً، فليس للبيت الأبيض ولا للبنتاغون خلاف مع ابن رشد ولا مع الفارابي ولا مع إخوان الصفا ولا مع المعتزلة ولا مع الأشعرية ولا مع المتنبي ولا مع جابر بن حيان ولا مع الخوارزمي ولا مع أي منظومة أخلاقية قيمية، أو مدرسة فكرية أو إبداعية أو لاهوتية فقهية أو علم من الأعلام الذين صنعوا حضارتنا. كما أنه ليس لأحد في العالم العربي خلاف مع كوبرنيكوس أو نيوتن أو كانط أو ديكارت أو هيدغر أو هولدرلن أو غوته أو بيتهوفن أو باخ أو دافنشي أو مايكل أنجلو أو حتى مع القديس توما الأكويني أو غيرهم ممن رسموا الملامح الأساسية لما يسمى اليوم بالحضارة الغربية. إن جورج بوش – على المستوى الثقافي – لا يمثل أي حضارة، وانتماؤه إلى الحضارة الغربية لا يختلف عن انتماء آل كاپوني إليها. ولقد كشفت حملته الانتخابية للرئاسة أن إمكاناته العقلية المتواضعة وكل ما في دماغه الزواحفي مستقى من مصادر ما يسميه ريتشارد كيلر سايمون بثقافة القمامة Trash Culture في كتاب له بهذا العنوان.
على مستوى ما يسمى بالحرب على الإسلام فإن رجل الدولة في واشنطن لا يميز لاهوتياً بين الإسلام وبين أي دين آخر، ولا يميز سياسياً بين الإسلام وبين أي تيار سياسي آخر. إن رجل الدولة على المستوى اللاهوتي لا يمانع المسلم أن يرفع مئذنته فوق قبة الكابتول (إلى جانب تمثال المرأة الهندية الحمراء)، وهو مستعد لأن يصوم ويصلي ويطلق لحيته ويهنىء المسلمين بالأعياد، ويصدر لهم طوابع تذكارية، ويُسمعهم أعذب الكلام عن الإسلام وعظمته وإنسانيته، ويدافع عن حقهم في حرية ممارسة الشعائر (غير الضارة) وتعمير المساجد بالرخام والذهب والدفاع عن قضايا الإسلام في بورما والبوسنة والماو–ماو وحيثما تقتضي مصلحة المافيا. وعلى المستوى السياسي فإن رجل الدولة الأميركي هو الذي يعمل بنفسه على خلق اتجاهات سياسية وأصوليات ذات صفة إسلامية، وهو الذي يفرّخ في واشنطن منظمات إسلامية تعمل لصالح سياسته وأجهزته الأمنية على طريقة «مكتب الشؤون الهندية». أما الحركات الإسلامية المقاومة فإن أميركا لا تتصدى لها لأنها إسلامية بل تتصدى لها كما تتصدى لأي تيار يقاوم أطماعها مهما كان دينه أو عقيدته أو مذهبه السياسي.



الفصل السابع

باراباس اليانكي

«ما لم يتم تدمير إمبراطورية السارزن (المسلمين) فلن يتمجد الرب بعودة اليهود إلى وطن آبائهم وأجدادهم».

جورج بوش، في كتابه عن «حياة محمد»، ١٨٣١

«إن الله اصطفى الأمة الأميركية من بين كل الأمم والشعوب وفضلها عليهم وجعلها «شعبه المختار»، وذلك من أجل قيادة العالم وتخليصه من شروره».

سناتور ألبرت بيفردج، ١٩٠٠

صحيح أن القوة الأولى لما يسمى بالحضارة «المسيحية اليهودية» فصلت دين المسيح وإيمانه وأخلاقه وتقديسه للإنسان عن سياسة دولتها، لكنها أبداً لم تفصل أميركا عن معناها الإسرائيلي المكابي الذي جعله باراباس اليانكي تعبيراً عن «رب

الجنود» وروح الغابة الأوروبية والسفينة بونتي.

في البدء، كان باراباس الصخرةَ التي بنت عليها مافيا كولومبوس كنيستها. وكان باراباس أول يانكي يعيش على دم المسيح وعذابه وإكليل شوكه. لقد نزل وأعطى المسيح إكليل الشوك لكي يلبس هو تاج وندسور ويجثو أمامه ويستهزئ به ثم يمضي لاكتشاف الهند في سفينة العهد القديم المحملة بكل العتاد الأخلاقي اللازم لنشر الحضارة في المجاهل. أبداً لم يعبد هذا اليانكي إلا «رب الجنود»، ولم يفهم دين المسيح إلا من خلال «لكسيكون» عبادة إسرائيل وأخلاق «رب الجنود». أبداً لم تكن عودة المسيح ومملكة الله أكثر من استعراض تلفزيوني وصفقة يتبرع بشيء من أرباحها لتعجيل نهاية الزمان وقتل ما يمكن قتله في مجاهل بابل وكنعان.

* * *

في سياق الحملة التي تشنها الولايات المتحدة على الإرهاب، اعترف الرئيس كلينتون أمام «الكنيست» (٢٧ ت ١/أكتوبر ١٩٩٥) بأنه كان في بعثة دينية عندما اصطحبه كاهنه إلى الأراضي المقدسة (فلسطين) قبل ١٣ سنة حيث عايش فيها تاريخ اليهود كما يرويه «الكتاب المقدس». وقال السيد كلينتون مخاطباً رؤساء الملائكة: شارون ورابين وناتنياهو بأن كاهنه الذي رعى تربيته الروحية هو الذي أوصاه قائلاً: «إذا تخليت عن إسرائيل فإن الله سيغضب عليك»، وهو الذي كشف له الحجاب عن «إرادة الله التي تقضي بأن تكون إسرائيل -كما هي في العهد القديم- لشعب إسرائيل إلى الأبد». ولكي يؤكد على التزام إدارته بإرادة الله و«حلم أجداد اليهود»، كما عبرت عنهما المسيائية

اليهودية، فإنه قطع لكاهنه عهداً وميثاقاً وقال: «إن إرادة الله يجب أن تكون إرادتنا».

هذه الصلوات المباركة لعودة «إرادة الله» من السبي إلى أورشليم الدولة الأميركية –على نقيض ما يقوله الدستور والثورة وميثاق الحقوق – ليست جديدة إلا في لغتها الثائرة على التعبيرات المضللة التي كانت تستخدمها الإدارات السابقة مثل «التحالف الاستراتيجي» كبديل عن «التحالف المقدس»، ومثل «القيم المشتركة» للتعبير عن «الإيمان المشترك»، ومثل «الالتزام الأخلاقي» الذي لم يكن يعني سلوكياً إلا كراهية كنعان التاريخية والتأكيد على المعنى الإسرائيلي لأميركا.

الصراحة التي كشف بها الرئيس الأميركي عن بنية وعيه التاريخي أولاً، وعن تأثير الكنيسة وأفكار العهد القديم على سياسة إدارته ثانياً؛ وعن المعنى «المكابي Maccabi» للسلام الذي يريد تحقيقه ثالثاً، وعن طبيعة «كبسولة الديناصور» التي صنع منها حديقته الجيوراسية رابعاً؛ إذا كانت تدل على أن أصدقاءه وحلفاءه العرب أفلسوا وهانوا ولم يعد لديهم شيء يضطر الرئيس الأميركي للنفاق، فإنها تدل أيضاً على أن «الثورة الأميركية» أفلست وهانت وليس لديها ما تقوله بالنسبة إلى هذا الوحل الأصولي الذي تغرق فيه الدولة الأميركية كلما اقتربت من شط العرب.

إلحاح الرئيس الأميركي على المعنى الإسرائيلي لأميركا؛ «بلد الهجرة والأمل وتعدد الأعراق والمعتقدات والحرية والدستور وميثاق الحقوق»، وتشبيهها بإسرائيل؛ الدولة اليهودية التي لم تستطع مختبرات «الكروموزوم» فيها إلى الآن تقرير من هو

اليهودي، يعني أن أميركا اليوم لم تبارح ما كانت عليه مستعمرة پليموث التي وصلها المستعمرون الأوائل في سفينة العهد القديم ومعهم «إرادة الله–يهوه» وكل العتاد الأخلاقي اللازم لإبادة وحوش المجاهل. يقول ديمونت Max I. Dimont في «اليهود الذين أعجزوا الموت *The Indestructible Jews*»:

> «إن هؤلاء الإنكليز الذين جاءوا لاستعمار أميركا كانوا يعتبرون أنفسهم "عبريين Hebraists" وكانوا أكثر يهودية من أيوب؛ ذلك الأممي المقدس الذي استطاع أن يندس بين أنبياء اليهود. لقد أرادوا أن يبنوا وطنهم على أساس العهد القديم، ولهذا اتخذوه على المستوى السياسي والاجتماعي أساساً أيديولوجياً لقوانينهم وعاداتهم. كانت تصورات «الشعب المختار» تأخذ بألبابهم مثلما أخذ بألبابهم يهوه إله العهد القديم الذي أرادوا تنفيذ وصيته بالسيطرة على العالم، واعتبروا ذلك إرادة الله»[١].

اللغة العبرية ومعها اللاتينية – لا الإنكليزية – هي التي كانت لغة التعليم الأساسية في جامعة هارڤرد عند تأسيسها في عام ١٦٣٦. وشريعة موسى هي القانون الذي أراد جون كوتون John Cotton تبنيه إلى جانب العبرية التي أرادها لغة رسمية لأبناء مستعمرات الدم الأزرق الثلاث عشرة على ساحل الأطلنطي. وعند زحف «أبناء الرب» من جزيرة روانوك Roanoke في اتجاه الغرب لم تكن حروب الإبادة والتطهير العرقي وحرق المحاصيل ومصادرة الأراضي وإطعام أطفال الهنود للكلاب إلا مظاهر «إرادة الله –يهوه» في العهد القديم كما تجلت للرئيس الأميركي الثاني والأربعين، وألهمته وهو يخطب في «ساتيريكون Satyricon الآلهة» أن يؤكد على المعنى الإسرائيلي لأميركا وأن يشعر وكأنه في بيته.

برغم الهزيمة الأيديولوجية أمام الثورة الأميركية وروح التنوير الأوروبية فقد شقت هذه «العبرية» المكابية مع الزمن قنواتها إلى عقائد الآباء المؤسسين وأنبياء الرأسمالية المتوحشة الذين ما زالوا يعتقدون –والكلام لديمونت– أن هيمنة أميركا على العالم هي «إرادة الله». وبرغم تأكيدهم على المعنى الإسرائيلي لأميركا فإن الآباء المؤسسين حاولوا النأي بهذه الأميركا عن فظاعات تاريخها وفظاعات التاريخ العبراني، وعبروا في كل كتاباتهم وأعمالهم عن اشمئزازهم من وصايا الكهان وخوفهم من تواطؤ الدولة معهم على حريات البشر وتعذيب عقولهم وأرواحهم. لقد صنعوا الثورة الأميركية وكتبوا الدستور ووضعوا ميثاق الحقوق بهذه الصيغة التي نعرفها لأن ذاكرتهم مشحونة بفظاعات محاكم التفتيش وصيد الساحرات وأهوال حملات الإبادة وحرق المحاصيل ومحو القرى والتطهير العرقي والعنصرية التي جردت «هنود» أميركا من إنسانيتهم وجعلتهم في تلك الأميركا الإسرائيلية مجرد فرائس وكائنات مشوهة. ولقد تبين فيما بعد أن أعظم ما في الدستور الأميركي وأكثر تفاصيله مستلهم من «شرعة السلام الكبرى The Great Law of Peace»[٢] التي ظلت أكثر من ألف سنة تشيع الحب والسلام والتسامح في الشمال الأميركي بين ست أمم من هذه الكائنات الهندية النبيلة التي حكمت عليهم «إرادة الله – يهوه» كما حكمت على الكنعانيين قبلهم بالإبادة.

من أجل هذا أنفق الآباء المؤسسون وقتاً طويلاً في نقد أيديولوجيا الاستعمار العبري، وعبروا عن اشمئزازهم من وصايا «يهوه» الدموية ومضارباته العقارية وتسليته السادية بالشعوب والأعراق. لقد حاولوا التسامي بالمعنى الإسرائيلي لأميركا، باعتباره إرادة الله، على

الرغم من نقدهم الشديد لفظاعات العبرانيين التاريخيين وأدبياتهم المقدسة، وعلى الرغم من لاسامية بعضهم وكرههم لليهود. فتوماس جفرسون وهو من أعظم الآباء المؤسسين لأميركا يقول في «الأفكار الحيّة *The Living Thoughts of Thomas Jefferson*» عن الإله الذي أقطع فلسطين «لشعب إسرائيل إلى الأبد» بأنه فظ cruel حقود vindictive مزاجي capricious ظالم unjust، بينما أمضى توماس باين كل حياته في التفنيد والنقد والتحذير من كتابه المقدس الذي «يفسد البشر ويصنع منهم وحوشاً». إنه في «عصر العقل *The Age of Reason*» يعري أخلاق «العهد القديم» التي تبرر الإبادة والمذابح الطقسية والتضحية المقدسة بذلك «الآخر» الكنعاني المهدور الدم.

في هذه التعرية يرينا توماس باين كيف يمكن للخطاب المقدس أن يصنع من الإنسان وحشاً يوحد بين طبيعته الوحشية وما يعتقد أنه إرادة الله، ويعطينا مفاتيح خطاب الرئيس كلينتون الذي أكد فيه على التزام أميركا بتحقيق «حلم أجداد اليهود» كما عبرت عنهما المسيائية اليهودية باعتباره إرادة الله:

بإرادة الله – يهوه رب الجنود: «لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى نهر الفرات» (تكوين ١٥:١٨).

بإرادة الله – يهوه رب الجنود: «ملعون كنعان، وعبد العبيد يكون» (تكوين ٩:٢٥)

بإرادة الله – يهوه رب الجنود: «سأسحق بك الأمم» (أرمياء١٥:٢٠)

بإرادة الله – يهوه رب الجنود: «تشرب الدم حتى تسكر بالدم» (حزقيال ٣٩:١٩).

بإرادة الله – يهوه رب الجنود: «سأرمي بجثث الفلسطينيين لطيور السماء ووحوش البرية» (صموئيل ١، ١٧:٤٥).

ومن جديد يحدق نرجس الأعمى في مياه النهر فتلتبس عليه إسرائيل التاريخية بإسرائيل الأميركية، وما جرى في كنعان الفلسطينية بما يجرى في كنعان الأميركية. ومن جديد يؤكد لنا الرئيس الأميركي أن الهنود الحمر الذين ماتوا بالنيابة عنا، نحن الملعونين على الحقيقة– مايزالون يعيشون فينا.

* * *

في ظل هذا التعطيل المقدس للعقل ومَلكة الحكم والشرائع الدولية وقرارات الأمم المتحدة ومبادئ حقوق الإنسان وكل هذا الانقلاب الأصولي على الدستور والثورة الأميركية والآباء المؤسسين، يقام سيرك التزوير الطقسي لمعجم السياسة الدولية بدءاً بتزوير معنى الإرهاب وانتهاء بتزوير معنى «السلام»؟

يقول الكاهن للرئيس الأميركي: «إذا تخليت عن إسرائيل فإن الله سيغضب عليك»،

ويقول شيخ حماس لمريده: «إذا تخليت عن فلسطين فإن الله سيغضب عليك».

ألا يحق للمتفرجين على كرنفال العنف السماوي أن يسألوا: أليس في هذا الپانتيون حَكم يقول لنا من هو القديس ومن هو الأصولي؟

كل الأصوليات خطر على عقولنا ومواهبنا وأرواحنا وإيماننا وخصب إنسانيتنا. وفي ذلك تستوي -كما يقول غارودي- أصوليات التكنوقراطية والستالينية والمسيحية واليهودية والإسلامية. إن مفهوم الأصولية يتضمن كل حركة دينية أو سياسية تزعم أنها تملك الحقيقة النهائية الكاملة المطلقة مثل حقيقة الاختيار الإلهي، وتحاسب البشر: «إما معنا أو ضدنا»... والأصولي بذلك لا يختلف عن أي طاغية أو جنرال... هذا يشمل أصولي النازية والستالينية كما يشمل أصولي المسيائية الأميركية.

هنالك الآن أصولية مسيائية أميركية تملك من أسلحة الدمار الشامل ما يقتل سكان ١٧ كوكباً مثل أرضنا، أصولية رافقت حركة التوسع الاستيطاني من پليموث إلى قندهار، وقضت «بإرادة الله» على ٤٠٠ أمة وشعب. وهناك الآن سياسة وأيديولوجيا وعلاقات دولية ونظام عالمي وأمم متحدة تعيد هذه الأصوليةُ صياغتَها بالإرهاب والعنف المميت انطلاقاً من «أخلاق السوق» ومن خطاب مقدس يعتبر «الآخر/ الوحش/ الغوييم» مشروعاً مقدساً للتضحية أو شكلاً مشوهاً من أشكال الحياة. وهنالك حاجة دائمة -في ظل «أخلاق السوق» النازعة الآن إلى البربرية وظل الهيمنات الاستعمارية الكبرى- إلى «فبركة» جديدة للشعوب والثقافات. إن هذه المسيائية الأميركية التي يعتبرها بارباس اليانكي في البيت الأبيض «إرادة الله» هي التي تعطي هذا التشويه والمسخ والتزوير لثقافة «الآخر» وأخلاقه وتاريخه ومعتقداته معنى الإطلاق والشمول والضرورة.

لم يقم «السلام القرطاجني Carthginian Peace» عندما أبادت روما قرطاجنة عن بكرة أبيها بل عندما صار القرطاجنيون الناجون من الإبادة يقولون عن تدمير قرطاجنة ما يقوله الرومان. ولم يقم «السلام الطروادي» عندما محا الإغريق طروادة من على وجه الأرض بل عندما صار الطرواديون يستمتعون بقراءة هومير. هذا «السلام القرطاجني» لم يدم إلا لأن إبادة «وعي المقاومة» كانت أدمى وأوحش من إبادة البشر. بذلك كتب للثقافة الرومانية أن تزوّر تاريخاً فخوراً بإبادة قرطاجنة مثلما يفخر الأميركيون بإبادة هيروشيما. ولعل ميكائيل غيلڤن Michael Gelven في «الحرب والوجود *Existence War and*» يلخص كل هذه الهزيمة الأخلاقية للوعي البشري أمام تزوير التاريخ (من عجرفة تاريخ روما الرسمي إلى عجرفة البروباغندا الأميركية حول «السلام القرطاجني») حين يقول: «عمل أخلاقي أو لا أخلاقي، هذا لا يعنيني، لأن الانتصار الروماني على قرطاجنة هو انتصاري أنا، فنحن في النهاية رومان بالوراثة».

إن الرئيس الأميركي في خطابه لا يؤكد على المعنى الإسرائيلي لأميركا وحسب، بل يؤكد أيضاً على أن سياسته الخارجية هي تعبير عن المسيائية اليهودية. إنها سياسة الالتزام بتحقيق المصير القدري للأفراد والشعوب والأمم كما نص عليه الكتاب الذي يصفه توماس پاين بأنه « يصنع من البشر وحوشاً».

ليتقدس إذن هذا اليانكي الأعظم في السماء. إنه هو الذي أعطى أميركا معناها، وأوحى إلى بارباس وندسور أن يطفئ العطش إليها بعصير دم الهنود. وليتمجد اسمه، فكل اعتراض على مشيئة باراباس الأرض هو اعتداء على مشيئة اليانكي الذي في السماء.

* * *

ولدت عبادة إسرائيل وشبت وشابت في كانتربري قبل أن تظهر لحية هرتزل بثلاثة قرون. كان تاجُها الذي لا تغيب عنه الشمس بيضةَ هذه الأفعى وأقتلَ سمومها. بدون هذا الاحتضان الطويل لأخلاق رب الجنود ودمويته وكراهيته للبشر لم تتحول سياسة هذا التاج وسياسة وريثه اليانكي إلى بربرية وعدوان على الإنسانية. أما المسيح فكان أول ضحايا هذا العناق الخانق بين الصالب والمصلوب. منذ أول مذبحة لكنعانيي العالم الجديد وباراباس اليانكي تحت صليبه يجرده من ثيابه ويقترع عليها ويكتب على رأسه المكلل بشوكها: هذا ملك اليهود وشارب دم «الغوييم». أربعة قرون وهو يفرغه من روح الله ويجعله نخاساً للأعراق والأمم، وجنرالاً يبشر بملكوت الله في صواريخ التوماهوك والكروز، ويلقي الخلاص في القنابل العنقودية.

لقد قتلوه ليحيا باراباس اللص، وهذا نيتشه أعظم شعراء الفلسفة بعد هيراقليطس شاهد عليهم:

«–... دعني أخبركم أنّا نحن قتلناه. قتلناه ليحيا باراباس اللص. أنتم وأنا. نحن جميعاً قتلة».

هوامش الفصل السابع

(١) Max Dimont في *The Indestructible Jews*، ص ٢٤٤ وانظر أيضاً ص ٣٤٦.

(٢) أنظر الملحق رقم ٢.



الملاحق



ملحق ١

لماذا أبكي زوال شعبي

من خطبة «سياتل» زعيم هنود «دواميش»،
وتعرف بـ«خطبة الهندي الأحمر».
وقد ألقاها في شعبه سنة ١٨٥٤
في حفل استسلام تاريخي لإبرام المعاهدة
التي أجبر فيها على تسليم بلاده.

«زعيم واشنطن الكبير يقول لي، في رسالته، إنه يريد أن يشتري بلادنا. ويقول لي إنه صديقي، وإنه يكنّ لي مودة عميقة.

«ما ألطف زعيم واشنطن الكبير، لا سيما أنه في غنى عني وعن صداقتي!

«لكننا سننظر في ما يعرضه زعيم واشنطن الكبير، فنحن نعرف

أننا إذا لم نبعه بلادنا فسوف يجيئنا الرجل الأبيض مدججاً بسلاحه وينتزعها.

«كيف نستطيع أن نبيع أو نشتري السماء ودفء الأرض؟

«ما أغرب هذه الأفكار!

«كيف نبيع طلاقة الهواء؟ كيف نبيع حباب الماء ونحن لا نملكها؟
«كل شبر من تراب هذه البلاد مقدس عند شعبي. كل خيط من ورق الصنوبر، كل شاطئ رملي، كل مدى من الضباب في غياهب الأحراج، كل حشرة تمتص ما تمتص أو تطن؛ كله مقدس في ذاكرة شعبي وتجربته مع الحياة.

«النسغ الذي يسيل في الأشجار يجري بذكريات الإنسان الأحمر.
«موتى الإنسان الأبيض ينسون مهدهم عندما يمشون بين النجوم. أما موتانا فأبداً لا ينسون الأرض الطيبة لأنها أم الإنسان الأحمر. نحن منها، وهي منا.

«الأزهار العاطرة أخواتنا. الغزال والحصان والنسر العظيم كلهم إخوتنا. القمم الصخرية، ندى المروج، ودفء جسد الحصان، كلها من هذه الأسرة الواحدة.

«وإذن، فحين يقول زعيم واشنطن الكبير إنه يريد أن يشتري بلادنا، إنما يسألنا ما لا يطاق.

«زعيم واشنطن الكبير، يقول في رسالته إنه يريد أن يشتري بلادنا،

وإنه سيهبنا مطرحاً يلمّنا؛ نعيش فيه سعداء، وإنه سيكون لنا أباً، وأننا سنكون أبناء له. «لذا، سننظر في ما يعرضه زعيم واشنطن الكبير حول شراء بلدنا، علماً بأنه عرض لا يطاق، لأن أرضنا مقدسة.

«هذه المياه التي تشع وهي تجري في السواقي والأنهار ليست مياهاً. إنها دماء أجدادنا. وإذا قررنا أن نبيعك بلادنا فاذكر أنها مقدسة. وقل لأبنائك إنها مقدسة. كل طيف يتراءى في صفاء مياه البحيرات ينبئك عن ذكريات شعبنا وتاريخه. وما تهمس به المياه هو صوت جدي. هذه الأنهار إخوتنا. إنها تطفىء ظمأنا، وتحمل مراكبنا، وتطعم أطفالنا. وإذا قررنا أن نبيعك بلادنا فاذكر وعلّم أبناءك أن هذه الأنهار إخوتنا، وعليك أن تحبّها كما تحب من ولدته أمك.

«ينهزم الإنسان الأحمر أمام زحف الإنسان الأبيض مثلما ينقشع ضباب الجبال أمام شمس الصباح. لكننا نرى رماد آبائنا مقدساً، وقبورهم بقيعاً مقدساً. وهكذا نرى الهضاب والأشجار، ونعتبر هذه البلاد قسمتنا، ونعرف أن الرجل الأبيض لا يفهمنا. تستوي هذه الأرض عنده والأرض المجاورة، لأنه الغريب الذي تسلل في ظلمات الليل فنال من هذه الأرض كل ما تمنى. إنه لا يرى الأرض أختاً له بل عدواً يقهره ثم يمضي. هاهو يهجر قبر أبيه ولا يعبأ، ويتركه وراء ظهره ولا يعبأ. إنه يسرق الأرض من أبنائها ولا يعبأ. هذه قبور آبائه ومهاد أبنائه منسية. وهاهو ينظر إلى أمه السماء فلا يراها إلا سلعة تسرق أو تباع كالأغنام والخرز. إن جشعه يلتهم الأرض فلا يغادرها إلا صحراء...

«لا يترك هذا الرجل الأبيض حيث يحل ويرحل شبراً من أرض دون ضجيج. لم يبق لديه مكان لسماع حفيف الأوراق وتفتحها في الربيع،

أو لسماع طنين أجنحة الحشرات. ولكن، لربما أنني متوحش، لا أفهم. إن الضوضاء تصم الأذنين. وماذا يتبقى للحياة حين يعجز الإنسان عن سماع صرخة طائر السبد، أو يصغي في أعماق الليل لنقاش الضفادع حول البركة.. لكن لربما أنني إنسان أحمر، لا أفهم.

« الهنود يفضلون صوت الريح العذب وهي ترمح فوق بركة المياه، ورائحة الريح المعشقة بمطر الظهيرة أو المعطرة برائحة الصنوبر.

«الهواء عند الإنسان الأحمر ثمين، فكل ما على الأرض يتنفس منه. الحيوانات والأشجار والبشر كلهم يتنفسون من نفس واحد. أما الإنسان الأبيض فيبدو أنه لا يعرف أنه يتنفس، وكأنه رجل مات منذ أيام. كل ما فيه بليد حتى النتانة. ولكن إذا قررنا أن نبيعك بلادنا فاذكر أن الهواء ثمين عندنا، وأن روح الهواء تتغلغل في كل من يتنفس منه. إن الريح التي وهبت جدّنا الأكبر أول شهيق هي التي استردت منه زفيره الأخير. إن على هذه الريح أن تمنح أبناءنا روح الحياة، فإذا بعناك بلادنا فاجعلها حراماً، وقدّسها كأنها مقام يحج إليه الرجل الأبيض ويتذوق فيه الريح المحلاة بأزهار المروج.

«وإذن، فسننظر في عرض شرائك بلادنا، وسيكون لنا شرط واحد إذا قبلنا ببيعها: أن يعامل الرجل الأبيض حيوانات الأرض كما يعامل إخوته.

«لربما أنني متوحش ولا أفهم، لكنني شاهدت ألف جاموس منتن في البراري قتلها الرجل الأبيض من قطار عابر. لعلي متوحش ولا أفهم كيف إن هذا الحصان الحديدي المدخّن أعظم في عينيه من الجاموس الذي لا نقتله إلا لكي نبقى على قيد الحياة.

«ما الإنسان بدون هذه الحيوانات؟ إذا انقرضت فسوف يموت من تَوَحّش روحه. ما يصيب الحيوانات سرعان ما يصيب البشر، فكل الأشياء متمارجة.

«لا بد أن تعلّم أبناءك أن أديم الأرض تحت أقدامهم من رفات أجدادنا. بذلك يحترمون الأرض. علمهم ما علمنا أولادنا أن هذه الأرض أمنا، وأن المكروه الذي يصيبها سوف يصيب أبناء الأرض. إذا بصق إنسان على الأرض فإنما يبصق على نفسه.

«هذا ما نعلم. إن الأرض لا تعود إلى الإنسان، بل هو الإنسان يعود إلى الأرض. هذا ما نعلم: كل الأشياء متمارجة كما الدم الذي يوحد العائلة. كل الأشياء متمارجة. ما يصيب الأرض سوف يصيب أبناء الأرض. الإنسان لا ينسج عنكبوت الحياة بل هو خيط في هذا النسيج. وما يفعله للنسيج يفعله بنفسه.

«لكننا سننظر في عرضك أن نذهب إلى المطرح المخصص لشعبي لنعيش وحدنا بسلام. لم يعد يهم أين نمضي بقية حياتنا. إنها أيام معدودة، بضع ساعات إضافية، بعض شتاءات..ثم لن يكون هناك أطفال من هذه الشعوب العظيمة التي عاشت يوماً على هذه الأرض، وهاهي ذي شراذم ضئيلة تتسكع في أعماق الأدغال. لن يكون هناك أطفال يبكون على قبور بشر كانوا ذات يوم مثلكم أقوياء طافحين بالآمال. ولكن لماذا أبكي زوال شعبي؟ إن القبائل لا يصنعها إلا الرجال. أما الرجال فيجيئون ويرحلون مثل أمواج البحر.

«حتى أنت أيها الرجل الأبيض الذي تمشي مع ربك وتحاكيه

صديقاً لصديق لن تنجو من هذا المصير. ولعلنا –في النهاية– إخوة. وسوف نرى.

«أعلم شيئاً واحداً قد يكتشفه الرجل الأبيض يوماً. أعلم أن إلهي وإلهه واحد. إنكم تعتقدون أنكم تملكون هذا الإله مثلما أنكم تريدون أن تملكوا أرضنا. إنه إله الإنسان، وقد وسعت رحمتُه الإنسانَ الأحمر والإنسان الأبيض. إن هذه الأرض غالية عنده. وإن إيذاء الأرض لا بد أن يثير غضب خالقها. لسوف تمضي أنت أيضاً أيها الإنسان الأبيض. وربما ستمضي قبل غيرك. هيا أمعن في تلويث فراشك ولسوف تختنق يوماً في قمامتك.

«لكنك –ولحكمة لا يعرفها إلا الإله الذي جاء بك إلى هذه البلاد– أعطاك سلطاناً على الأرض وعلى الإنسان الأحمر. إن هذا المصير ما يزال لغزاً عندنا.

«أين الأيكة؟ ولّت.

أين النسر؟ اختفى.

«ما معنى أن تقول وداعاً للصيد وللحصان الرشيق؟

«إنها نهاية الحياة وبداية مغالبة الموت.

«وإذن، سننظر في عرضك أن تشتري بلادنا. فلئن رضينا فلكي نأمن على أنفسنا في ما وعدتنا به من مطرح نعيش فيه. هناك، ربما،

سوف نعيش آخر أيامنا. وحينما يزول آخر إنسان أحمر فوق الأرض، ولا يبقى منه إلا ظلال سحابة تعبر البراري.. ستظل هذه الشطآن والغابات مسكونة بروح شعبي.

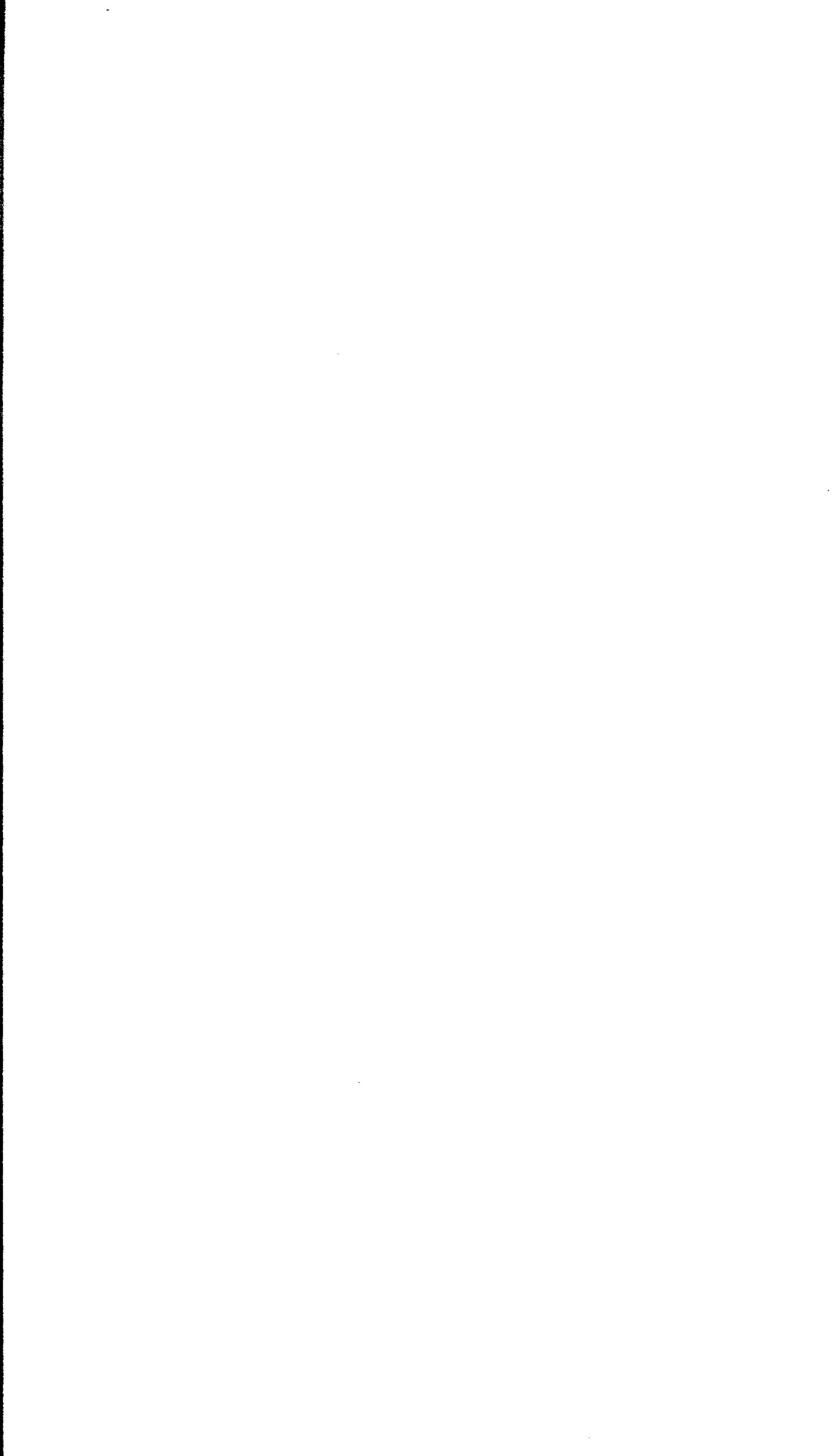
«وإذن، إذا بعناك أرضنا فأحبّها كما يحب الوليد خفقان قلب أمه.

«وإذن، إذا بعناك أرضنا فأحبها كما أحببناها، واستوص بها خيراً كما استوصينا. واحتفظ من أرضنا بصورة لها مثلما كانت يوم أخذتها.

«وبكل ما أعطيت من سلطان، وكل ما فيك من عقل وقلب: استوص بأرضنا وصنْها.

«أحبّها كما يحبنا الله جميعاً.

«إنني أعلم أن إلهنا وإلهكم واحد، وأن هذه الأرض غالية عليه. وأعلم أن الرجل الأبيض أيضاً لن يفلت من يد المصير. وفي النهاية.. لعلنا إخوان. وسوف نرى».



ملحق ٢

الواهبون الهنود

«إنهم أكثر تحضراً من الإنكليز وإنهم يعيشون في ظل أنبل القوانين وأبسطها. هذا دستورهم أو «قانون السلام الأعظم» ينبض بالحرية، وهاهم جميعاً ينعمون بفرص متكافئة وامتيازات متساوية، سعداء ليس هناك من وصف ممكن للفرح والبهجة والدفء والشجاعة التي تعمر صدورهم».

جيمس أديار، مؤرخ، ١٧٧٥

في خمسينيات القرن الثامن عشر، عندما أراد التاج البريطاني أن يعقد حلفاً مع «الأوروكوا» أو ما يعرف باتحاد الأمم الهندية «الحمراء» الست (الأمم الخمس قبل انضمام شعب التوسكارورا إليهم في عام ١٧٢٢)، كانت عيون الغزاة الإنكليز في مستعمراتهم الثلاث عشرة تتطلع بيأس إلى الجبال الوعرة التي تحول دون توسعهم غرباً في عمق «كنعان الجديدة». وكانت استكشافاتهم

واستخباراتهم بين الهنود قد علمتهم أن هذه البلاد المشتهاة أكبر من جزيرتهم الأولى بعشرات المرات. لم يكن ربهم قد أوحى إليهم شيئاً عما وراء تلك الجبال الوعرة الشاهقة والغابات الكثيفة المعتمة، لا ولا وجدوا في نبوّات حجاجهم حديثاً عن هذه الأنهار العريضة والبحيرات الكبيرة، لكنهم كانوا يحدسون بجسد المحيط الرابض في أقصى الخريطة؛ هناك خلف ثلاثة آلاف ميل من القرى والمدن والسهول والصحارى والجبال والأحراج وحقول الذرة والبطاطا والأشجار المثمرة وتلك المزروعات التي لم يعرف العالم القديم عنها شيئاً. وكانوا على قناعة بأن يشوع كان يخاطبهم بما أوحي إليه: «أعطيتكم أرضاً لم تتعبوا عليها، ومدناً لم تبنوها، ووهبتكم كروماً وزيتوناً لم تغرسوها» (يشوع ٢٤: ١٣).

بين أصابع الجبال القريبة كانت مدن «الاتحاد الهندي» وقراه تتناثر كعناقيد نجوم سماء الصيف أمام أعين المستوطنين الغزاة، وكان «الأوروكوا» على ثغور الشمال تتشابك حقولُهم وبيادرهم مع حقول «الشيروكي» وبيادرِهم في ثغور الجنوب. أمم ست متحدة، كانوا أكثر عدداً من المستوطنين الإنكليز، وكان مزارعوهم وحرفيوهم وسياسيوهم وأطباؤهم وخطباؤهم أكثر تقدماً من هؤلاء الغزاة الذين لم يحملوا إلى هذا العالم الجديد إلا البندقية والتوراة.

وبين أصابع هذه الجبال تسلل المستوطنون الفرنسيون وراحوا يبنون -على غصة في حلق الإنكليز- حصوناً ومستوطنات وصلت إلى ما يعرف اليوم بمدينة «پيتسبورغ». كان تجارهم ومبشروهم يستميلون قلوب «الأوروكوا» بينما كان جنودهم وقناصوهم يضعون أساس إمبراطوريتهم الجديدة على ضفاف الأنهار العظيمة.

وأدرك شعب الله الإنكليزي أن الصداقات والتحالفات تغنم من الأبرياء والسذج ما لا تغنمه الجيوش. كان مسعاهم لاستمالة قلوب «الأوروكوا» إليهم من القرارات الحاسمة في التاريخ البشري، وكان له أكبر الأثر في غلبة الأنكلوسكسونية على الشمال الأميركي بعد إبادة شعوبه ومحو ثقافاته الغنية المتنوعة وتشويهها.

ولم يبخل «الأوروكوا» على شعب الله الإنكليزي بشيء، بل ردوا التحية بأحسن منها، وقاتلوا إخوانهم «الألغونكيين Algonquins» في سبيله، وبذلوا له الود والأرض والثروة والبراعة والفنون الزراعية التي أعانته على ترويض هذه الطبيعة الجديدة المستعصية وبناء إسرائيله الموعودة. كانت تلك اللقاءات «الودية» فرصة عظيمة للغزاة الغرباء تعلموا منها ما ميزهم عن أهل جزيرتهم الأولى، و«أمركهم» رويداً رويداً، وأمدهم بالأفكار والعواطف التي أشعلت الثورة الأميركية وانتهت بقيام «الاتحاد».

منذ تلك الحجة المباركة الأولى على متن السفينة الأسطورية «ماي فلور» في تلك الأيام السعيدة التي وصل فيها الحجاج إلى شواطىء كنعان الجديدة كانوا يحلمون ببناء أورشليمهم المقدسة أو ما كانوا يسمونه في رموزهم المقدسة بالمدينة الجبلية city upon a hill، وكانوا يشعرون بأنهم يتميزون عن أهل جزيرتهم بسمات وفضائل مختلفة أولها أن خروجهم من جزيرتهم يضاهي خروج العبرانيين من مصر إلى أرض الميعاد.

ومنذ «عيد الشكر» الأول والذبيح «التركي» الأول، في تلك الأيام البريئة التي رحب فيها «أوليس الهنود الحمر» سكوانتو Squanto بالحجاج الإنكليز وأكرمهم، رسم الهنود بأيديهم معالم المزيج

الثقافي الجديد، وتركوا بصماتهم على النظام السياسي والاجتماعي للغزاة؛ على مأكلهم وملبسهم وطرق تفكيرهم. لقد عرفوا كيف يعيشون في أميركا وطبيعتها الوحشية آلافاً من السنين، وليس أمام الغزاة الجدد إلا ما قاله كاتب الخيال العلمي «أ. ڤان فوغت» لأبطاله الراحلين إلى المريخ: «تعلموا من أهله وتكيّفوا أو موتوا». لكن التاريخ المنتصر وحش لا يسمن ويقوى إلا بلحم الفرائس الآدمية. لقد محا الحسنات وأباد أهلها المحسنين، ولم يترك منهم إلا تلك الصورة الهوليوودية المشوهة لكائنات عراة متوحشين ينبت في رؤوسهم الريش ويعوون في البراري كما تعوي الضباع. هكذا يقول المخرج ستيفن فيريكا Stephan Feraca:

> «هؤلاء الهنود الذين خلقتهم السينما وكستهم بكل ريش الطيور ليسوا بشراً. ولم يكن الهدف من خلقهم على هذه الشاكلة أن يكونوا بشراً لأن معظم الأميركيين لا ينظرون إليهم كبشر. وعلينا هنا أن نتذكر أن كثيراً من الأطفال الأميركيين يعتقدون اليوم أن الريش ينبت في رؤوس الهنود كما ينبت الشعر».

من أبرز ما محاه التاريخ المنتصر إعجاب الغزاة بروعة ما شاهدوه لدى الهنود من أفكار وتقنيات وشرائع وعادات وفنون وفلسفة حياة وأساليب بلاغية وفصاحة لسان، ذلك الإعجاب الذي أغرى بعضهم بالانضمام إلى المجتمع الهندي والعيش بينهم، بينما حمله بعضهم في سفن العودة إلى بلادهم مع آلاف القصص والمشاهدات والوثائق التي لم ينج منها إلا النزر اليسير. في عام ١٧٢٧ نشر العالم الطبيعي الإيرلندي كادولادر كولدن Cadwallader Colden كتاباً يعتبر من أندر الشهادات عن النظام السياسي والاجتماعي والتقدم التقني والرقي الديني والفني والخطابي لدى هنود «الأوروكوا».

كان كولدن في الثانية والعشرين يوم وصل إلى العالم الجديد فأمضى فيه نصف قرن من الزمان باحثاً في العلوم الطبيعية وموظفاً لدى الحكومة الاستعمارية في نيويورك حيث تعرف على «الأوروكوا» وأقام علاقات طيبة مع كل شعوب هذا «الاتحاد الهندي».

منذ الصفحات الأولى لكتابه «تاريخ الأمم الهندية الخمس...» *The History of the Five Indian Nations Depending on the Province of New York in America* (منشورات جامعة كورنل) لم يتحرج كولدن من إبداء افتتانه بهنود «الأوروكوا»، ولم يكبح جماح إعجابه بهم، فقد قارنهم بعظماء سياسيي الرومان واليونان وخطبائهم وأبطالهم، بل قال عنهم إنهم يتفوقون على الرومان واليونان تفوقاً عظيماً إذا ما اضطروا إلى الخيار بين الحياة وبين الحرية. واعترف لهم بفرادة اتحادهم الفيدرالي ونموذجيته وتطوره السياسي والدستوري الذي لم يعرف له المسيحيون (ويقصد الأمم الأوروبية) مثيلاً.

لنقرأ ما كتبه كولدن عن هؤلاء الذين سلبهم التاريخ المنتصر إنسانيتهم ولم يبق منهم إلا هذه الصورة المشوهة التي نراها في أفلام رعاة البقر:

> «إنهم يعيشون في ظل اتحاد قائم بين هذه الأمم الهندية الخمس منذ مئات السنين ولا يمكن الحدس ببداياته [من المرجح أن الاتحاد أقيم في عام ١٥٧٠ في عهد الزعيم ديكاناويدا Dekanawidah]. كل أمة في هذا الاتحاد جمهورية لا مركزية مستقلة يقودها زعماء محنكون في السياسة، طاعنون في السن، يستمدون سلطانهم وقوتهم من حكمتهم ونزاهتهم، ومن مبايعة أفراد الأمة لهم؛ زعماء لا يعرفون

العنف ولا الإكراه في التعامل مع أبناء أمتهم. فالمحسن يثاب بالتكريم والاحترام والتبجيل، والمسيء يعاقب بالازدراء والاستنكار ووصمة العار. إنك ترى هؤلاء الزعماء خدماً لشعوبهم على نقيض الحال مع ملوك عالمنا القديم وحواشيهم، وتراهم أفقر الناس لأن عليهم ساعة اختيارهم أن يَهَبوا ما لديهم لعامة الناس، وأن لا يحتفظوا لأنفسهم بشيء من الهدايا الرسمية أو من غنائم الحروب. أما إذا زلت أنفسهم وخانوا هذه الفضائل فإن شعبهم لهم بالمرصاد؛ سرعان ما ينحّيهم عن مناصبهم ويحتقرهم ويزدريهم».

ما فات كولدن أن يذكره لأبناء عصره أن الهنود لا يؤمنون بالملكية الفردية مما حال دون قيام نظام الوراثة ومبدأ التمييز وعلاقات الجشع والعنف، وقضى على كثير من مغريات بيع الطبيعة وشرائها. فالطبيعة التي يعيشها الهنود لم يرثوها عن آبائهم وأجدادهم، بل يعتقدون أنهم استعاروها من أبنائهم وأحفادهم.

وللتعبير عن افتتانه بالنظام السياسي والاجتماعي للاتحاد الهندي استعان كولدن بكلمات المؤرخ الفرنسي مسيو دو لا پوتري Monsieur de la Poterie فقال مستشهداً:

«إننا حين نتحدث في فرنسا عن الأمم الهندية الخمس فإن الصورة الأولى التي تتبادر إلى أذهان السامعين هي صورة البرابرة المتوحشين. ولكن الواقع مختلف تماماً، فهم على مستوى رفيع جداً من السياسة والتشريع لم تعرفه فرنسا قط. إنك لا تلمس ذلك من براعتهم في إدارة شؤونهم مع الفرنسيين والإنكليز وحسب، بل تلمسه كذلك في أساليب تعاملهم مع غيرهم من الأمم الهندية».

مع مقارنة الهنود بالعبرانيين القدامى وصل الافتتان بحضارة الهنود وحياتهم الاجتماعية والسياسية مداه المتطرف. فالعبرانيون القدامى عند شعب الله الإنكليزي «شعب مقدس فوق الشعوب»، وحياتهم كما يصورها العهد القديم هي اليوتوبيا التي يحلمون بتحقيقها في الأرض. لهذا كانت مقارنة المجتمع الهندي بالعبرانيين مجازفة كبيرة من كتاب القرن الثامن عشر وصفها بعض أنبياء الاستعمار البريطاني للعالم الجديد بأنها تجديف وهرطقة. وكان جيمس أديار James Adiar في كتابه «تاريخ الهنود الأميركيين» *History of the American Indians* (١٧٧٥) أبرز من شبه الأوروكوا بعبرانيي العهد القديم وقال:

> «إنهم أكثر تحضراً من الإنكليز وإنهم يعيشون في ظل أنبل القوانين وأبسطها. هذا دستورهم أو «قانون السلام الأعظم» The Great Law of Peace ينبض بالحرية، وهاهم جميعاً ينعمون بفرص متكافئة وامتيازات متساوية، سعداء ليس هناك من وصف ممكن للفرح والبهجة والدفء والشجاعة التي تعمر صدورهم».

«هذه الحرية الغريبة عن حياة الإنكليز الاجتماعية والسياسية هي الحرية المثالية التي يحلم بها كل مجتمع»، كما يقول كولدن. إن الإنكليزي مثل الإسرائيلي يؤمن بالحرية، ولكن لنفسه فقط، أما مفهوم الحرية لدى الأمم الهندية الخمس فمفهوم مطلق لا يسمح باستعلاء الكبير على الصغير ولا باستكبار القوي على الضعيف، فإما المساواة أو الموت.

لعل إصرار الهنود على المساواة والحرية المطلقة في دستورهم وعقائدهم المقدسة هو الذي جعلهم من المجتمعات النادرة التي

لم تعرف نظام الرق أو السخرة؛ حرية تشمل الكبير والصغير، والمرأة والرجل، حتى إن الغزاة الأوروبيين لم يصدقوا ما رأته أعينهم من كرامة المرأة الهندية. يقول كولدن:

> «كل ما يملكه الرجل –باستثناء فرسه وسلاحه– يؤول إلى امرأته عند الزواج. إنهم يعاملون نساءهم باحترام لا نعرفه في إنكلترا».

وهذا بالتأكيد ما جعل كاثي كيتون Kathy Keeton المناضلة النسائية ورئيسة تحرير مجلة «أومني» العلمية تعزو التقدم الكبير في حركة تحرير المرأة الأميركية إلى المجتمعات الهندية وتعترف بفضل المرأة الهندية فتقول في كتابها «امرأة المستقبل *Woman of Tomorrow*»: «لقد تعلمنا منها نسويتنا».

ومما وأده التاريخ المنتصر كذلك فيما وأده من إنسانية الهنود وحضارتهم وتقدمهم إعجاب الأوروبيين بالأساليب الخطابية الرفيعة لدى «الأوروكوا». إن روعة فنهم الخطابي هي التي عززت مقارنتهم بالرومان والإغريق لدى كولدن وغيره من الأوروبيين المنصفين الذين عرفوا الهنود عن كثب. والتسمية الفرنسية Iroquois للاتحاد الهندي مستمدة أصلاً من انسحار الفرنسيين بالأساليب البلاغية الهندية، فهي لفظ مركب من الكلمتين الهنديتين اللتين يفتتح بهما المفاوض الهندي خطابه وينهيه: هيرو hiro و كون kone؛ الأولى تعنى «وإذ أقول لكم»، والثانية كلمة عجيبة ذات ظلال كثيرة من المعاني العاطفية التي يبلورها الخطيب في قفلة خطابه، ويضمنها كل ما أراد أن يعبر عنه من فرح أو حزن أو غضب أو ارتياح. وكان وين رينولدز Wynn Reynolds قد أعد رسالة لنيل شهادة الدكتوراة درس فيها ٢٥٨ خطاباً ألقاه الهنود في

مفاوضات الهدنة والمعاهدات مع الإنكليز ما بين ١٦٧٨ و١٧٧٦ وأشار فيها إلى الأساليب البلاغية البديعة التي تميزت بها هذه الخطابات وجعلتها تضاهي خطابات اليونان والرومان.

في كتابه «الواهبون الهنود» *Indian Givers* يتحدث عالم الإنسانيات جاك وذرفورد Jack Wetherford بتفصيل ساحر عن فضل الهنود الحمر على الحضارة الإنسانية وما يدين لهم به عالمنا اليوم في ميادين الزراعة والصناعة والتشريع والطب والعمران والاكتشافات وغير ذلك مما جحده التاريخ المنتصر وشوهه ليخفي جريمته الهائلة؛ جريمة إبادة ١١٢ مليون إنسان ومحو أكثر من ٤٠٠ ثقافة من سجل الحضارة الإنسانية في أكبر هولوكست عرفه التاريخ البشري.

ما لم يفصّله وذرفورد هو فضل هؤلاء الواهبين الأسخياء على الولايات المتحدة الأميركية وعلى شعب الله الإنكليزي. لم يتعرض للقوة العسكرية للاتحاد الهندي ودورها في انتصار الإنكليز على الفرنسيين وطردهم من شمال القارة. كان لاتحاد «الأوروكوا» مركز تجاري كبير في الشمال الأميركي، وكانوا يسيطرون على شبكة المواصلات بين الشاطىء والداخل، وكان لهم تأثير ديبلوماسي بارع وحضور طاغ بين أمم أميركا وشعوبها وقبائلها، يعود فضل ذلك إلى اتحادهم الفيدرالي وإلى توسط موقعهم الجغرافي بين المستعمرات الإنكليزية والفرنسية يوم كان الإنكليز يحاولون الزحف غرباً بينما كان الفرنسيون يبنون حصونهم في شمال البحيرات الكبرى وغربها.

كان الإنكليز يعرفون أن انتصارهم على الفرنسيين مرهون بموقف «الأوروكوا»، تماماً كما عرفوا في أول هذا القرن أن تمزيقهم

واستعمارهم للعالم العربي وغزوهم لفلسطين وتدميرهم لإمبراطورية الشر العثمانية رهن بموقف العرب. بذلك لجأوا إلى أبرع مواهبهم: الكذب، فكذبوا عليهم وخدعوهم كما كذبوا علينا بعد ذلك وخدعونا. أرسلوا إليهم من بذل لهم الود والهدايا وتعلم لغتهم ولبس ملابسهم ورقص حول نيرانهم كما أرسلوا إلينا من صام وصلى وتعمم وأكل مع «البهائم» بأصابعه العشر. سعوا إلى التحالف مع «الأوروكوا» وإلى كسبهم إلى جانبهم كما سعوا بعد ذلك إلى التحالف مع العرب وكسبهم إلى جانبهم.

وعندما صدّق «الأوروكوا» وعود الإنكليز وتحالفوا معهم انحازت معظم الأمم الهندية إلى جانبهم. واستغل الإنكليز ديبلوماسية «الأوروكوا» ونفوذهم ومركزهم التجاري بين بقية الأمم الهندية مستعينين على ذلك بالوعود والكلام المعسول والهدايا التي حرّم دستور «الأوروكوا» قبولها. ومع محاق القرن (١٧٦٣)، أثمرت الصداقة الإنكليزية – الهندية عن هزيمة فاجعة للفرنسيين وحلفائهم الألغونكين تفرغ بعدها الإنكليز وورثتهم الأميركيون..لإبادة «الأوروكوا» و«الألغونكين» معاً. في إحصاء أول القرن العشرين لم يبق في الولايات المتحدة من أمم الاتحاد الست (موهوك، أونيدا، أونونداغا، كايوغا، سينيكا، توسكاريرا) سوى ٧٨٣٧ شقياً متهالكاً ومرشحاً للموت بالجوع والفقر والسكر والمخدرات و«الانتحار الغامض»!

في تلك السنوات الأوروبية المظلمة التي كان فيها المصلحون والفلاسفة يبحثون عن بديل للاستبداد ومجتمع الطبقات كان هناك حوالى مليون إنكليزي يعيشون في مستعمرات متناثرة على طول الشاطىء الشرقي. كانوا، كما يقول الإسرائيليون عن أنفسهم اليوم،

جزيرة في بحر من الشعوب المعادية. وفي ذلك البحر من الشعوب المعادية وتلك الطبيعة الوحشية لم يكن لهؤلاء المستعمرين أن يقوا على قيد الحياة لولا إنسانية الهنود وسخاؤهم وحبهم للسلام كما يقول وليم فنتون William Nelson Fenton في كتابه الوثائقي عن كونفدرالية الأوروكوا *The Great Law and the Longhouse: A Political History of the Iroquois Confederacy*. كان عليهم أن يتعلموا لبس الملابس وأحذية الثلج الهندية التي ماتزال آثارها باقية إلى اليوم عند المزارعين ورعاة البقر، وكان عليهم أن يأكلوا الذرة والبطاطا الهندية ويتعلموا فن زراعتها. وكان عليهم أكثر من ذلك أن يتعلموا منهم كيف يبنون الدولة العادلة التي لم يجدوا لها مثالاً في عالمهم القديم. إن التحالف مع «الأوروكوا» أدى إلى نشوء مجالس المعاهدات التي جمعت زعماء الطرفين. ومن تلك المجالس -كما يقول وذرفورد- انطلقت فكرة الاتحاد الأميركي في ذهن بنجامين فرنكلين، وانطلقت كذلك فكرة «مجتمع اللاإكراه» في ذهن توماس جفرسون.

هناك عشرات الدراسات الأكاديمية ومئات الأبحاث المنشورة اليوم عن تأثير «الأوروكوا» ودستورهم الفيدرالي الهندي The Great Law of Peace وتجربتهم السياسية الفريدة على الثورة الأميركية وعلى فكر ما يسمى في التاريخ الأميركي بالآباء المؤسسين Founding Fathers مثل توماس جفرسون وبنجامين فرنكلين وتوماس باين. من أول هذه الدراسات وأهمها وأشملها كتاب دونالد غريند Donald Grinde «الأوروكوا وتأسيس الأمة الأميركية *The Iroquois and the Founding of the American Nation*» الذي كشفت وثائقه العسكرية والديبلوماسية الكثيرة عن التأثير الهائل الذي تركه «الأوروكوا» في فكر توماس جفرسون وبنجامين فرنكلين.

كل هذه الدراسات الأكاديمية أكدت على أن الهنود مارسوا في ظل اتحاد الأمم الست مفاهيم المشاركة والمساواة والحقوق الطبيعية ومعظم ما كان الفلاسفة والمصلحون الأوروبيون يعتبرونه ضرباً من الفراديس والمدن الفاضلة. لقد عبر نظام الاتحاد الهندي في دستورة «قانون السلام الأعظم» عن مفاهيم وتصورات فلسفية وسياسية غريبة جداً على الملكيات الأوروبية وعن شرائع «الحق الإلهي» والبطريركية والتمييز العنصري. كان ينص حرفياً على أن يكون الزعيم خادماً وليس صاحب حق إلهي، وعلى أن يكون الزعماء أجراء عند الشعب وليسوا سادة عليه. ووضع الدستور شروطاً لتنحية هؤلاء الزعماء لا بد من تنحيتهم عند خرقها. كذلك ضمن الدستور لكل من يعيش في ظل الاتحاد من مواطنين وغرباء حرية التعبير الديني والسياسي، وحرّم دخول البيوت بدون إذن أهلها، ونصّ على حق مشاركة المرأة وتوزيع الثروة توزيعاً عادلاً.

هذه المفاهيم «الديموقراطية» التي تبدو مستمدة من الدستور الأميركي اليوم كان هنود الأمم الست يعيشون في ظلها ويمارسونها داخل أميركا قبل أن يسمع العالم شيئاً عن جان جاك روسو وجون لوك وبنجامين فرنكلين وتوماس جفرسون والمغناكارتا وجون واين وأكاذيب التاريخ المنتصر في هوليوود.

***

بعد الإبادة الجسدية التي ارتكبها العبرانيون الإنكليز ضد أكثر من ٤٠٠ شعب من شعوب شمال أميركا، تابعت هوليوود وأدبيات التاريخ الأميركي المنتصر هذه المسيرة العبرانية الخالدة على المستوى الثقافي والحضاري، فأعادت خلق الضحايا خلقاً يحيط

معنى وجودهم كله بعلامة استفهام كبيرة ولا يُبقي منهم إلا ما يشيع الفرح بإبادتهم ويجعل من قتلهم تسلية للأطفال وتزجية للفراغ والضجر.

لم يكن أدب هذا التاريخ المنتصر إلا سلاحاً آخر من أسلحة الإبادة؛ سلاحاً سياسياً قاتلاً يستدرك ما لا يُذبح بالسكين ولا يحرق بالنار ولا يموت بالرصاص والحرب الجرثومية؛ سلاحاً يبرر الجريمة ويغسل أدمغة أولئك البشر الطاهرين المستعدين لتفهم كفاح الشعوب المهزومة عسكرياً ولمساعدتهم في نضالهم من أجل البقاء. وهذا ما أدركه رسل مينس أحد زعماء «الحركة الهندية» الحديثة حين قال: «إذا ما تفككت ثقافتنا وانحلّت فإن أمتنا الهندية كلها ستزول من الوجود».

ومنذ الضحية الكنعاني الأول كانت حرب الإبادة تستمد أخلاقها من لاهوت الاستعمار العبراني الأول، وكانت أدبيات التاريخ المنتصر في كل مرحلة من مراحل هذه الإبادة وحملات الاستيعاب الثقافي assimilation سلاحاً محاذياً يقاتل إلى جانب البندقية والهدايا المسممة بجراثيم الجدري. ثم إنها اتخذت «طابعاً إنسانياً نبيلاً» عندما صارت تلهب حماسة الناس لحملة تمدين هذا «الوحش النبيل» وإنقاذه من طبيعته المتوحشة وروحه الشريرة.

واستمرت الأنواع الأدبية -ومعها الإعلام واللاهوت، وهوليوود في مرحلة متأخرة- تخوض هذه الحرب الضارية إلى أن أحكم التاريخ المنتصر سيطرته على الحقيقة والمعرفة والخيال وحل هذا التزوير والتشنيع محل الجنود والأسلحة. كان كل وجه من فنون التزوير والتشويه يعمل على طمس الثقافات الهندية واستيعاب من

نجا بجلده من الهنود في نظام القيم والأفكار والمصالح الأميركية. وقد صارت هذه الهيمنة الاستعمارية مُحكمة ومرة في سخريتها إلى درجة أن الطفل الهندي اليوم يتسلى بلعبة الكاوبوي ويجد متعة في «لعبة» قتل الهنود.

إن التاريخ المنتصر اليوم يحتكر ثقافة الهنود فلا يعطيك إلا ما يؤكد على المبررات الإنسانية والحضارية لجرائمه وبربريته. أما الهنود الذين لا يقبلون هذه الصورة الجديدة لأنفسهم فمن سيسمع أصواتهم في هذا الضجيج المتعجرف؟ تقول أنيت جيمس M. Annette Jaimes، وهي من أبرز وجوه الفكر والنضال في «الحركة الهندية» وعالمة أنثروبولوجية محاضرة في جامعة كورنيل إنها زارت متحفاً أقيم للتراث الهندي في ساوث داكوتا، وإنها وجدت «أداة معدنية» كانت تستخدمها جدتها لاقتلاع الأعشاب البرية. كانت الأداة داخل قفص زجاجي مع عدد كبير مما صار يعتبر تحفاً أثرية هندية، وكان أمامها ورقة تقول إنها أداة كان يستخدمها الهنود في الصيد. ومضت أنيت إلى مدير المتحف فقدمت نفسها وبينت له حقيقة هذه الأداة وعلاقتها بها وكيف أن جدتها كانت تعلمها اقتلاع الأعشاب البرية بها، ثم طلبت إليه تصحيح المعلومات الخاطئة على الورقة. ولدهشتها فقد أجابها مدير المتحف ناصحاً لها أن تتعلم تراثها جيداً!

إذا كان التاريخ المنتصر، لا الهنود، هو الذي يقرر وحده ما يفعل الهنود بأدواتهم، وإذا كان الهنود غير قادرين على تصحيح هذا «الخطأ البريء» الذي لا ناقة له في حرب الإبادة ولا جمل، فما بالك بحقائق الإبادة نفسها، وما بالك بثقافة الهنود وآدابهم وتقاليدهم وطقوسهم الروحية التي صارت نهباً لكل ناهب ولعبة

لكل لاعب وتجارة رابحة يستغلها التاريخ المنتصر أبشع استغلال؟ لقد حقق كارلوس كاستنيدا ودار نشره عشرات ملايين الدولارات من قصة ملفقة اخترع فيها كاستنيدا شخصية دون جوان ماتيس الأسطورية التي لم يسمع بها الهنود، ونسب إليه وإليهم طقوساً وعقائد لم يعرفوها. (يمكن قراءة تفاصيل هذا السطو الثقافي في «تلمود العم سام»، جسور ٩/١٠، فصل «الثقافة المستباحة: شيء عن كاستنيدا»، ص ٢٢–٢٧).

ذات صيف، زرت قلعة هندية بديعة بناها شعب الناڤاهو في «الجرود الكبرى» Grand Canyons. كنت أتوقف من آن لآخر على جانب الطريق لأتأمل معسكرات الإبادة البطيئة المعروفة باسم «منعزلات الهنود Indian Reservations»، أو لأتحدث إلى باعتهم الفقراء بوجوههم المغضنة المتعبة وأرواحهم اليائسة. كانت كوى القلعة الهندية تطل على أعاجيب الجرود وجمالها المهيب وألوانها الشفقية الجليلة، وكانت أدوارها الثلاثة مرسومة السقوف برسوم هندية مذهلة أين منها رسوم تلك الوجوه البشعة لمجرمي الاجتياح العبراني الأول في سقف السستين. ولعل هذا ما جعل هذه القلعة الهندية محجة للسياح البيض والصفر يتدافعون إلى داخلها بعدسات تصويرهم وشهقات إعجابهم؛ يدفعون رسوم الدخول التي لا يستفيد منها أصحابها الهنود شيئاً، ويشترون من باعتها أمام أعين الأشقياء الهنود تلك المجوهرات والتحف «الهندية» الغالية المصنوعة لحساب «ثروة الأمم» في تايوان وكوريا.

قبل رحلتي إلى الجرود الكبرى بشهرين أخبرني صديق يعمل في وزارة الخارجية أنه كان ينظر في كتاب مدرسي لابنته يعرض نبذاً عن شعوب العالم؛ نبذاً سريعة مختصرة ومزينة بالرسوم. وقال لي

إنه لم يصب بالدهشة وهو يرى الصفحة الأولى من الفصل الذي يتحدث عن العرب مزينة بصورة ثلاثة جِمال وبدوي له وجه الشمبانزي فتلك -كما يعتقد- صورة تقليدية غير مفاجئة تراها في معظم كتب الدراسة الأميركية. ما أدهشه وفاجأه أن الفصل الذي يتحدث عن العبرانيين كان مرفقاً بصورة ترمز إلى «عبقريتهم الفنية والمعمارية» هي صورة بديعة للمسجد الأقصى. وقال لي الصديق إنه ذهب إلى المعلمة محتجاً وطالباً منها أن تشرح لتلاميذها أن هذه الصورة المرافقة لفصل العبرانيين لا تمثلهم بل هي مسجد من مساجد العرب المسلمين فقالت له: إن الأمر ليس من اختصاصها، فهذا الكتاب يُدرس في كثير من المدارس الأميركية، ولكي يصل إلى نتيجة مرضية فإن عليه أن يكتب إلى دار النشر والمؤلفين. ففعل ذلك. وكان الجواب الذي تلقاه هو أن «الصورة التي تقول في رسالتك إنها مسجد من مساجد العرب والمسلمين موجودة على كل الإعلانات السياحية الإسرائيلية وإذا كانت لديك من شكوى فارفعها إلى حكومة إسرائيل»!

في هذه الكنعان المستباحة يصعب التمييز.

وفي ظل هذه السيطرة المطلقة على الحقيقة والمعرفة والخيال صنع التاريخ المنتصر من جسد ضحاياه وثقافاتهم فريسة طقسية كما صنعت النازية فرائسها. لقد استعانت «النازية» و«الصهيونية» و«العبرانية الأنكلوسكسونية» في صناعة فرائسها بمنطق واحد يتجذر ويستمد كل أخلاقه من لاهوت الاستعمار العبراني الأول. هذه الصورة السلبية التي تعرضها السينما الأميركية للهنود الأميركيين بعدوانية كريهة هي أفضل مثل على الصورة السلبية التي كانت ستعرضها السينما النازية لليهود لو قدر للرايخ الألماني أن

ينتصر بالطريقة التي انتصر فيها الرايخ الأميركي. إنك لكي تعرف ماذا سيبقى لليهود والغجر والبولونيين والأوكرانيين من ثقافاتهم بعد خمسين أو مئة سنة من انتصار النازيين عليهم فما عليك إلا أن تزور القدس أو تنظر إلى حال الهنود الحمر في الولايات المتحدة. ليس هناك هندي واحد في الولايات المتحدة، كما يقول المؤرخ رُبرت كوستو Rupert Costo، لا يتمزق ألماً مما في كتب التاريخ الأميركية، وليس هناك طفل هندي واحد يعود إلى البيت من مدرسته إلا دامعاً مقهوراً.



نبذة عن المؤلف

منير العكش ناقد وباحث في «الإنسانيات» يعيش في واشنطن حيث يصدر مجلة «جسور» وكتبها بالتعاون مع منشورات جامعة سيراكوس في نيويورك. منذ وصوله إلى أميركا وهو يدرس ويكتب عن تاريخ وثقافة الهنود الحمر وعن ظاهرة «الصهيونية غير اليهودية». له عدد من الكتب التي ألفها أو حررها أو ترجمها، منها «أسئلة الشعر»، و«عن الشعر والجنس والثورة» (بالاشتراك مع نزار قباني)، و«الثقافة، الابداع والمنفى»، و«الثقافة والحرب»، و«الثقافة ومقاومة الموت». حائز على «وسام أوروبا» ١٩٨٣ لحوار الحضارات. عمل العكش طويلاً في الصحافة الثقافية والعلمية وأسس وتولى تحرير مجلتين علميتين: «٢٠٠٠» في لندن و«الصفر» في باريس.



فهرس الأعلام

أ

ب

ت

ث

ج

د

ر

ز

س

ش

ع

غ

ف

ك

ل

م

ن

هـ

و



فهرس الأماكن

أ

ب

ت

ج

ر

س

ش

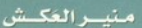
ص

ع

ف

و

ي





والإبادات الجماعيّة

لم تكن إبادة ١٨،٥ مليون هندي أحمر على يد المستعمرين الإنكليز في المنطقة المعروفة اليوم بالولايات المتحدة حادثة فريدة في التاريخ الأميركي، ولم تقتصر حروب الإبادات الجماعية على الهنود الحمر، بل إنها رافقت تاريخ الولايات المتحدة القديم والحديث، داخل القارة الأميركية وخارجها، وكانت من أهم عناصر فكرة أميركا.

إن فكرة أميركا نفسها (فكرة استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة) هي التطبيق العملي للفهم الإنكليزي لفكرة إسرائيل التاريخية. وإن كل تفصيل من تفاصيل الاستعمار الإنكليزي لشمال أميركا حاول أن يجد جذوره في أدبيات تلك الإسرائيل وتقمص وقائعها وأبطالها وأبعادها الدينية والاجتماعية والسياسية. كانوا يسمون أنفسهم يهوداً وعبرانيين، ويطلقون على العالم الجديد اسم إسرائيل وأرض كنعان، وكانوا يقتلون الهنود وهم على قناعة بأنهم عبرانيون أعطاهم الله تفويضاً بقتل الكنعانيين. إن يهودية هؤلاء المستعمرين الإنكليز هي التي أرست الثوابت الخمسة التي رافقت التاريخ الأميركي في كل محطاته:

- المعنى الإسرائيلي لأميركا
- عقيدة الاختيار الإلهي والتفوق العرقي والثقافي
- الدور الخلاصي للعالم
- قدرية التوسع اللانهائي
- حق التضحية بالآخر

وهي الثوابت التي يضيئها هذا الكتاب ويكشف عن طقس العنف الذي رافقها على مدى أكثر من أربعمائة سنة من الإبادات الجماعية.



